

روايات عبير



فيوليت وينسبير

السريّة



www.elromancia.com

مرمورية

الشريدة

«تحركت عيناها البنفسجيتان بسرعة متجولة على وجهه وبرغم انها لم تشعر بانفراجة ضوء مفاجئة تبدد العتمة التي دخلت فيها منذ فقدت ذاكرتها ، الا انها شعرت فجأة بانها متأكدة من صحة ماقاله أفري ، فمنذ لقائهما اول مرة في تشيز ، ربطت في عقلها الباطن بين روبرت وبين ماتحاول الفرار منه . وكان يخيفها لأنها كانت تعلم طوال الوقت ان شيئاً ما فيه قد يهز ذاكرتها ويعيدها من المكان المسدود الذي دخلت فيه ، او الملجأ الذي لجأت اليه لتهرب من ذكريات شيء ما تجهله» .

هي : ممثلة مسرحية فقدت ذاكرتها.

هو : ممثل مسرحي معروف ، ساخر وحاد الطباع.

وبينهما عائلة كبيرة تحمل اسم منطقة بكاملها ، لكن «الشريدة» هل تمنح قلبها للطبيب الذي أنقذها ام للممثل الذي شك في حقيقة أمرها؟

السودان ٧٠٠ م	اليمن ٨ ر	الكويت ٧٠٠ ف	لبنان ٦٠٠ د
U.K. ٤١	تونس ١ د	الامارات ٩ د	سورية ٨٠٠ م
France F 10	ليبيا ٧٠٠ د	البحرين ٩٠٠ ف	الأردن ٥٠٠ ف
Greece Drs 120	المغرب ٨ د	قطر ٩ ر	العراق ٥٠٠ ف
Cyprus P 1	مصر ٧٠٠ م	عمان ٩٠٠ ب	السعودية ٨ ر

١ - ذاكرة قاحلة

«يا عزيزي أفري لا تقل إنك خدعت بهذه الفتاة الغريبة وقصتها غير المعقولة عن ذاكرتها المفقودة يا إلهي! إنك عادة أول من يشك في دوافع أكثر السيدات براعة».

انعكست الدهشة والاستخفاف في صوت روبرت تشيز.

وكان الدكتور أفري الذي مارس مهنته بنجاح كبير في شارع هارلي وأصبح يعمل حالياً في بعض الأبحاث الكيميائية بمنزله في ديفون، يتميز بوجه جاد من تلك الوجوه التي تجعل صاحبها يبدو أكبر سناً وأكثر صرامة عما هو عليه في الواقع - ولكنه كان من الرجال الذين لا يتصرفون باندفاع وتهور، بل يتروون ويدرسون ما هم مقدمون عليه. ومن هنا كانت دهشة روبرت من الطريقة التي استقبل بها أفري هذه الفتاة في منزله بدون تشكك في حقيقتها. فجأة وبلا مقدمات بدا الضيق على أفري الذي سحب الغليون من فمه بحركة سريعة فتناثر الرماد منه، وبادر ابن عمه قائلاً:

«بوب ممن المفروض أن يكون الطبيب في هذه العائلة. أنا أم أنت؟»

نظر روبرت إلى طرف سيكارته المشتعل وابتسم تلك الابتسامة الساخرة - ابتسامة الممثل التي يتميز بها - مما أثار سخرية أفري هو الآخر وذكره بالعدد الكبير من السيدات اللواتي سحرتهن هذه الابتسامة الغامضة المثيرة وأطارت صوابهن وخاصة عندما كانت تنطلق عن خشبة مسرح لندن.

قال روبرت :

«إن مشكلة العلوم الطبية الحديثة هي أنها بدلا من الاحتفاظ لنفسها بأسرارها كما كان يحدث في الماضي تسارع بنشرها في كتب سميكة تغري الفتيات الصغيرات بقراءتها، والآن انظر.»

طعن روبرت الهواء بسيكارته وهي حركة مولع بها عندما ينطلق في الخطابة:

«إنني أستطيع البحث عن أعراض فقدان الذاكرة في أحد تلك الكتب الكبيرة المثيرة ثم أعود إليك وأردد تلك الأعراض بدقة فتقيس نبضي فتجده سريعا جداً لأنني كنت أكذب عليك. فتقول لنفسك يا للمسكين إنه يعاني من فقدان الذاكرة.»

«هل سأقول ذلك؟»

ابتسم أفري ابتسامة عريضة بددت كل صرامته وبدا من الواضح أنه مازال في منتصف الثلاثينات وأنه لا يكبر روبرت إلا بسنة وبضعة أشهر. «أخبرني يا بوب لماذا تتعامل على هذه الفتاة الصغيرة المسكينة مع أنها بلا شك تعاني من فقدان الذاكرة؟»

أخذ روبرت الذي لم تثنه ابتسامة أفري الساخرة يفكر في الموضوع وهو مسترخ برشاقة على مكتب ابن عمه الكبير حيث تتناثر بشكل غير منظم أوراق مختلفة عليها رموز كيميائية، وساعة أفري الطبية ملقاة كالثعبان. تعجب روبرت من هذه الفوضى التي تتناقض تماماً مع النظام الدقيق الذي يفرضه أفري على عواطفه.

التقط روبرت جزءاً من حذاء نسائي لامع وأخذ يقلبه بين أصابعه الطويلة. كان مزيناً بفصوص دقيقة من اللؤلؤ الصناعي وقطع صغيرة من الماس المزيف تلمع بطريقة تذكر المرء بالمرح. تكلم روبرت بنشاط مفاجئ :

«حسناً. أولاً: لديها الجرأة أن تقول إنها لا تتذكر إلا شيئاً واحداً هو اسمها وإن اسمها ليجيا - يا أهي - ليجيا. إن آخر مرة صادفني هذا الاسم عندما كنت تلميذاً في المدرسة وكنا نقرأ قصة كوفاديس. ثانياً: جاءت في منتصف الليل وهي تهيم على وجهها وقادتها قدمها إلى منزلك. فلماذا منزلك بالتحديد يا أفري إلا

إذا كانت تعلم جيداً أن هنا يسكن طبيب تستطيع أن تكرر على مسامعه الأعراض التي حفظتها جيداً؟ ثالثاً...»

قال وهو يدير قطعة الحذاء بين أصابعه:

«حضرت وهي ترتدي حذاء سهرة غالي الثمن نسبياً وفي الوقت نفسه ترتدي حلة من قماش رخيص يعلق في الشارع. هل تعرف ماذا أظن؟»

تغيرت تعبيرات وجه روبرت واختفت الابتسامة من عينيه وانعكس طبعه المتشائم بشدة على ملامحه النحيلة.

«إنني أظن أنها واحدة من أولئك الفتيات الرخيصات. وهي تعمل كمرافقة أو كخادمة لاحدى السيدات وخرجت تبحث لنفسها عن مغامرة أو تجربة مثيرة، وأن هذا المشبك - يخص السيدة التي كانت تعمل لديها. كما أن جردا ، تقول إن مقاس حذاء السهرة أكبر كثيراً من قدميها وقد تم حشو مقدمته بالورق.»

عند ذكر اسم سكرتيرته تقطب جبين أفري وقال:

«من المنتظر أن تتعامل جردا على الفتاة طالما أنك كنت متعاملاً عليها»

رد روبرت ببراعة:

«ولماذا؟ قابلت جردا الفتاة بينما لم أقابلها أنا ولم أسمع بوجودها حتى حضرت إلى هنا هذا المساء.»

قال أفري بضيق:

«إنك تعلم جيداً لماذا - إن جردا مفتونة بك لدرجة أنها لا تستطيع أن تنطق بحكم سليم.»

«جردا الطموحة مفتونة بي؟»

بدا على روبرت الاهتمام للحظة ثم قال:

«يا لحفة عقل السيدات! ألا يستطيع الطب أن يفعل شيئاً يا عزيزي فيخترع نوعاً من الأقراص تجعل النساء يقعن في حب الرجال الطيبين العقلاء بدلا من الأوغاد أمثالي.»

قال أفري باقتضاب:

«لنعد إلى حالة فقدان الذاكرة التي لدينا.»

«الفتاة لا تدعي المرض يا بوب. أجريت عليها كشفاً دقيقاً وأنا لست دجالاً

ريفيًا. الفتاة لا تعرف حقيقة من هي ولا من أين جاءت ولماذا اختارت باب بيتي لتتوارأ أمامه الساعة العاشرة والنصف مساء وليس في منتصف الليل كما ذكرت.

ابتسم أفري قليلا لأن روبرت كان ممثلا ويميل دائما للمبالغة ثم استمر قائلا:

«إنني أعترف أن اختيارها باب منزلي وهو منزل طيب ، حيرني. ولكن كل ما استطاعت أن تقدمه كتفسير هو أنها وجدت نفسها فجأة وحيدة في المستنقعات ثم رأت الأصواء تشع من هذا المنزل كالمنار. وأنت تعلم كيف تحب جدتنا أن تفتح الستائر عن آخرها - فانجبت مباشرة إلى مصدر الضوء».

فكر أفري كيف أتت مباشرة إليهم تلك الزائرة الغريبة وكيف كانت تبدو ليلة الأسس بعينها الواسعتين بلون البنفسج البري ووجهها الشاحب الشديد البياض ويديها الصغيرتين المذعورتين وهما تتعلقان بكتفيه عندما حملها إلى داخل المنزل.

وجدتها إلى الطباخة لدى عودتها من اجتماع كنيسة في القرية وهي تجلس على عتبة الباب الخارجية وتدفن رأسها بين يديها. ولم تستطع أن تحصل من الفتاة على أي إجابة مفهومة فسارعت إليه في المكتبة وهي تنفجر قائلة:

«يادكتور هناك إنسانة غريبة تجلس على عتبة منزلك ويحسن أن تحضر بسرعة إذ يبدو أنها ستدخل في غيبوبة».

إلا أن الغيبوبة لم تحدث ولكن أفري شعر منذ حمل الفتاة إلى داخل المنزل أن هناك شيئاً ما خطيراً في حالتها. لذلك تضايق أن يسمع روبرت وهو يتهمها مع انه لم يقابلها بعد. وضايقه أكثر أن جرذا زودت ابن عمه بتفاصيل عن الفتاة لحظة وصوله من لندن لقضاء نهاية الأسبوع معهم مستقلة عدم وجود أفري في المنزل ذلك الوقت .

«النساء شياطين! هكذا صرخ أفري - إنهن مستعدات دائماً لاتهام ونقد بنات جنسهن».

تساءل روبرت :

«هل سنعود للكلام عن جرذا ؟»

قال أفري وهو يبحث عن كيس التبخير بين الأشياء المتناثرة على المكتب :

«نعم سأعود للكلام عن جرذا . ماذا قالت عن الفتاة؟ طبعاً أشياء لا تشرفها على ما أظن؟»

«قالت إنها ليست جميلة على الإطلاق ولكن من الواضح أن لديها خطة للأبقاع بك».

سأل أفري بتهكم:

«وماذا أيضاً؟»

«قالت أيضاً إن الفتاة لم تكن تملك فلساً واحداً في جيوبها وأنها فزعت عندما سمعت أنك توجهت إلى البوليس في برنهام للسؤال عما إذا كان أحد أبلغ عنها بأوصافها».

قال أفري وهو يشعل غليونيه ويحلق خلال الدخان:

«فهمت - إن أي فتاة لا تحب أن تتعامل مع البوليس . وهذا سبب فزعها. ولكن كان من الضروري طبعاً أن أذهب وأسأل. أعطيتهم أوصافها وسيقومون بتوزيعها بالطرق العادية حتى إذا أبلغ أحدهم عن فقدانها سنعلم بذلك فوراً».

رد روبرت باقتضاب :

«لن يفعل أحد».

«انظر يا بوب».

اعتدل أفري في جلسته وبنظرة جامدة أضاف :

«ليس من حقل أن تصدر أحكاماً خاطئة وحاقدة على شخص لم تقابله أبداً. هذا ظلم صارخ».

«إنك مأخوذ بتلك الفتاة الصغيرة - أليس كذلك يا صديقي؟»

نظر روبرت إلى ابن عمه باهتمام وحسب استطاع مفاجيء - كان أفري رجلاً واسع الثراء ، اذ ورث أموالاً طائلة عن والدته ووالده الذي ترك له ممتلكات واسعة من عائلة تميز ورغم أن عمله في شارع هارلي الأنيق جعله يحتك بكثير من السيدات الجميلات اللواتي حاولن إيقاعه في شباكه إلا أنه استطاع أن يحافظ على نفسه وعلى ثرائه في مجتمع لندن الخطير. ولكن روبرت لم يعجبه ميل ابن عمه الواضح إلى هذه الفتاة الماكرة ذات

الوجه الأبيض بقصتها المختلفة عن فقدان الذاكرة.

وحتى جردا ميتلاند ، التي كانت رائعة الجمال وليس لديها مبرر للغيرة من النساء الأخريات الأقل جمالا ، أخذت موقفاً عدائياً صريحاً من الفتاة اذ أخبرت روبرت أنها فتاة عادية جداً ، شعرها أسود بدون أية تجميدة ، وجسمها كجسم صبي .

سأل روبرت :

«متى سأقابل الصغيرة ليجيا ، أم لن أقابلها؟»

ابتسم أفري وقال :

«ستراها على العشاء ، إنها تستريح اليوم في السرير ولكني وافقت على أن تنزل للعشاء»

فحص أفري وجه ابن عمه الساخر ثم قال محذراً :

«ولكني لا أريد ألا عيبك يا بوب ، إذا ضايقك الطفلة سنتشاجر أنا وانت» .
«الطفلة ؟»

أخذ روبرت يحرك قطعة الحذاء العاكسة للضوء وابتسم ابتسامة ساخرة قائلاً :

«هذه الحلية لا يمكن أن تعجب فتاة صغيرة . لذلك فإن افتراضي أن الحذاء لا يخصها افتراض صحيح . أليس كذلك؟»

«من الممكن» .

اعترف أفري باستياء واضح .

استمر أفري يقول :

«بالأكيد لا . إن هذا الحذاء مبهرج أكثر من اللازم ولكنه غال . فلنفحص الأمر ، صاحبه يمكن أن تكون سيدة في منتصف العمر يصعب التفاهم أو العمل معها . واحدة من أولئك السيدات العدوانيات الكثيرات المطالب ، إنك تعرف ذلك النوع ، سمينة ولديها وقت فراغ كبير لا تستطيع استغلاله وتحقد على أي شابة صغيرة . ولا بد أن فتاتنا قررت أن تتركها وتهرب» .

تحول وجه أفري الأشقر الجاد الى الضحك .

«اسكت ! إنك تتكلم كمخبر على المسرح ولكن الحقيقة البسيطة هي أن تلك

الفتاة فقدت الذاكرة وأنا أنوي أن أتولى أمرها حتى يحضر أهلها لأخذها أو تتذكر من هي . ولا يهمني في قليل أو كثير من هي صاحبة الحذاء . واجبي الأول كطبيب هو أن أوفر لتلك الفتاة الرعاية الطبية اللازمة» .

أجاب روبرت :

«لماذا إذا لا ترسلها الى المستشفى إذا كانت قصتها صادقة؟»

«لأنها خائفة حتى بدون أن تذهب الى المستشفى والذهاب الى المستشفى سيقتنعها بأنها مريضة ، ولكنها ليست مريضة ، إنها تهرب من شيء أو من شخص . وعندما ينتهي خوفها ستعود إليها ذاكرتها . وقد يحدث هذا في أي وقت - اليوم أو غداً أو ربما بعد أسبوع» .

«وقد لا تتذكر أبداً» .

ثم أضاف روبرت وهو يلقي الحذاء على المكتب :

«إنها مغامرتك يا أفري ومن يبحث عن المغامرات يدفع الثمن كما يقول المثل» .
أخذ روبرت يحك أثر جرح قديم في أنفه وابتسم ببطء وسخرية وهو يقول لابن عمه :

«ولكن يبدو أنك تفكر في المثل الآخر القديم الذي يقول إن النصيحة شيء لا يحتاجه العقلاء ولا يقبله الأغبياء» .

رد أفري وقد عاد اليه هدوءه القديم :

«ربما»

كانت الثريات الفينيسية الباهتة تتلألأ في غرفة الطعام ، ويتعكس ضوءها على المائدة الطويلة وقد وضع عليها إناء فضي محفور تخرج منه أوراق نبات السرخس الأخضر ، وتمتد على مفرش المائدة الفينيسي المصنوع من الدانتيل الدقيق الصنع . أما الصيني فكان من أفخم الأنواع .

كانت عائلة تشيز تعرف كل هذه الفخامة لأنها تربت فيها ، أما جردا ميتلاند فكانت لا تزال تتمتع بكل ما يحيط بها من ترف ورفاهية . كانت عائلتها أكثر تواضعاً بالمقارنة مع عائلة تشيز . فقد كان والدها يعمل كاتباً في مكتب بريد فينشي حيث كانت تقطن . وكانت أمها تعمل بائعة في أحد المحلات الراقية في منطقة فينيسيري بارك . وحصلت جردا على عملها كسكرتيرة خاصة

للثري الكبير أفري بسبب تعليمها الجيد وطموحها وحسن حفظها. وكانت تركض في إحدى الأمسيات الممطرة لتلحق بالأوتوبيس بعدما قضت السهرة مع زميل لها فانزلت بكعب حذاءها العالي وسقطت في الماء على الرصيف فامسأ أمام أفري الذي تصادف خروجه في تلك اللحظة من أحد المطاعم بشارع شافنبري مع مجموعة من أصدقائه . وبشهادة تقدم أفري وساعدها على النهوض وهو يقول أنها في حاجة الى مشروب يعيد توازنها وأخذها عائداً إلى مطعم بوردينو الشهير وتبعها أصدقاؤه بمرح وقد أعجبوا بما إجاب بهال جردا . وقد نتج عن ذلك اللقاء المفيد أن عينها أفري سكرتيرة له. وتثبتت جردا على الفور بهذه الفرصة المواتية. والآن وبعد مرور أربع سنوات أصبحت مستقرة تماماً في بيت أفري في ديفون وهو الأمر الذي كان يناسبها تماماً وخاصة عندما كان يحضر ابن عمه وينضم اليها من وقت الى آخر.

كانت جردا تبسم وهي تضع الشراب وتنظر الى روبرت تشيز الجالس أمامها على المائدة - كانت تراه أليفاً في ملابس المساء السوداء والبيضاء. اذ هذه كانت تناسب شيطانيته التي كانت تظهر خاصة بعد غروب الشمس. وكان شعره الأسود يلمع تحت الأضواء الباهتة ووجهه الأسمر يتسم بسخرية في جو هذه الغرفة الجميلة.

سألت جردا وهي تأكل فطيرتها:

«هل أنت أسف لأن الرواية انتهت أخيراً؟»
«قليلاً»

انفجرت شفتاه عن ابتسامة عريضة وهو يرقب جردا تأكل فطيرتها محاولة ألا تلوث شفتيها بالشراب المركز.

«إن مسرحية يستمر عرضها عامين ونصف تصبح شيئاً يعتاد عليه المرء. وعندما تنتهي ويتبادل الجميع القبلات والوداع يشعر الانسان بالأسف لانتهائها ويود لو أنها تبدأ من جديد»

ابتسم وهو يتحدث في عيني جردا الزرقاوين المرسومتين بمهارة ثم انزلت نظره إلى كتفيها الناعمين يزد من جمالها فستانها الدانتيل الأزرق الغامق.
«إنك أجمل كثيراً من أن تكوني مجرد سكرتيرة - هل تعلمين ذلك يا جردا ؟»

تورد وجهها بالسرور وبطريقة لا شعورية نظرت إلى الفتاة التي كانت تجلس إلى يسار روبرت - كان رأس الفتاة منحنياً على طعامها ولكنها لم تكن تأكل شيئاً. وعندما شعرت بنظرة جردا رفعت رأسها والتفت عينها بل على الأصح اصطدمتا: عينان زرقاوان فيهما حب استطلاع في الوجه الأبيض الوردي اللائق من جماله. وعينان بنفسجيتان متحدتان في الوجه النحيل القلق. وجه إنسانة صغيرة في مازق.

قال أفري وهو يتجه الى ليجيا :

«إنك لا تأكلين كثيراً يا عزيزتي - ألسنت جائعة؟»

أشاحت ليجيا بوجهها عن جردا :

«لست جائعة إلى حد كبير يا دكتور تشيز»

عند سماع صوتها اتجهت عينا روبرت تشيز بحدة إلى منظر وجهها الجانبي. لم تكن قد تكلمت حتى الآن وعندما قام أفري بتقديمها اليه ردت بانحناءة من رأسها. وقد فاجأه صوتها الموسيقي المنخفض.

«ليجيا اسم عجيب - هل تتصورين نفسك جارية رومانية؟»

استدار رأسها الأسود الناعم ناحيته وتفحصت عيناها الحذرتان البنفسجيتان الاحتقار وعدم الثقة على وجهه الأسمر وقالت :

«أنا لا أفهمك»

«لا تفهميني؟»

ابتسم وقال :

«كانت ليجيا على ما أذكر جارية رومانية وألقاها أنباغ نبرون الى ثور بري أو شيء من هذا القبيل - وأجبروا عشيقها الروماني ماركوس أن يراقب ما يحدث - لا بد أنك تذكرت الآن!»

هزت رأسها الأسود بيتاً رة أفري بحدة :

«توقف عن مضايقتك يا بوب . أنا لن أسمع بذلك»

هز روبرت كتفه ووجه اهتمامه لجردا :

«إذا سمح لك أفري باجازة في الغد يا جيلتي سأخذك لتري الكوخ الذي اشتريته أخيراً. هل تظنين أنه سيسمح؟»

«يا أفري أرجوك.»

التجهت جردا بلهفة الى رئيسها:

«هل تسمح لي أن أذهب؟ سأعمل يوم السبت إذا كان هناك عمل خاص تحتاج له.»

رد أفري بدون اكتراث للآراء الأخرى قائلاً:

«لماذا لا تذهبن الى الكوخ يوم السبت؟»

«سأنتقل الى الكوخ في ذلك اليوم.»

رفع روبرت كأسه وابتسم فجأة ابتسامته الساحرة:

«هيا يا أفري. امتنع الفتاة يوم راحة من واجباتها الشاقة وأعدك أنني سأعيدها لك في حالة طيبة.»

ابتسم أفري رغماً عنه وقال:

«حسناً! إنها لك للغد فقط.»

قال روبرت:

«ها أنت يا جردا، إنك لي غداً!»

قالت وهي تبتسم ابتسامة ساحرة:

«اشكرك يا أفري.»

قال وهو يضحك:

«يافتاتي العزيزة لا تشكريني - إنني ألتيك للأسود.»

«مازلنا نعود للحديث عن الأعمال الرومانسية هذه الليلة.»

قال روبرت بصوته الناعم كالحريز وقد استقرت نظرتة مرة أخرى على الفتاة

ذات الوجه الأبيض والعينين البنفسجيتين بجانبه، وأخذ يرقب رأسها المنحني

ومتنظر وجهها الجانبي المحفور بحدة ثم أضاءت عيناه بسرور قاس عندما رأى

الدموع تنحدر من عينيها على خديها الأبيضين وفي لحظة دفعت كرسيتها الى

الوراء وهرعت الى الخارج - نهض أفري وهو يشتم وركض خلفها بخطواته

القوية السريعة ولحق بها وهي تحتاز البهو.

قالت جردا وهي تبتسم قليلاً:

«هل أنت سعيد الآن يا روبرت؟»

ورفع حاجبه متسائلاً:

«ماذا فعلت؟»

«نظرت اليها.»

«وهل هذا شيء مسيء؟»

رفع كوبه الملائن وأخذ يتفحص جماله الرقيق وكيف يتلألأ الضوء على الزجاج.

«هل أجعلك ترغيبين في البكاء عندما أنظر اليك يا جردا؟»

قالت وهي سعيدة بنفسها:

«إنك لا تنظر إلي بالطريقة التي كنت تنظر بها لهذه البانسة الصغيرة. لو فعلت ذلك في أي وقت من الجائز أن أنفجر باكياً.»

«سأذهب الى غرفة الصالون لأتكلّم مع جدتك - عندما يعود أفري سيكون ثائراً لأنك ضربت حيوانه المدلل الشارد - هل تعلم ذلك؟»

«لحظة يا جردا.»

تقدم روبرت ورائها وأخذ ذراعها الناعمة في يده:

«هل أفري مفتون حقيقة بهذه الفتاة؟»

قالت وهي تضحك ضحكة خبيثة:

«إظن أن تلك الفتاة الغريبة الصغيرة تثير فيه شعوراً بالرغبة في حمايتها... إنه رجل مسكين.»

«إنه ليس بمسكين.»

قال روبرت ذلك بأسلوب فظ. ثم جذب بخشونة مفاجئة جسدا إليه

وتحسس ذراعها الناعمتين قائلاً:

«كيف يشعر الانسان بالرغبة في حماية شخص ما؟»

وضحك في عينيها قائلاً:

«لماذا لا تثيرين في هذه المشاعر يا جيلتي؟»

تظاهرت بالغضب وهي تجذب نفسها بعيداً عنه:

«أرجو ألا تعاملني كأني فتاة صغيرة.»

خرجت من الغرفة تتبعها ضحكة روبرت الوقحة التي لم تتوقف إلا بعد أن

أغلقت بقوة أبواب غرفة الاستقبال.

«إنه يظن أنني أتظاهر أليس كذلك؟»

وقفت ليجيا بجانب المكتب في غرفة المكتبة وهي تمسح دموعها بالمنديل الكبير الذي أعطاه اليها أفري . وعندما رأت السكر يلسوح على وجه أفري قالت بشعور مفاجئ بالكرامة :

«لا أظن أنه يجب علي أن أبقى هنا أكثر من ذلك يا دكتور تشيز الأفضل أن أذهب إلى المستشفى.»

«هذا بيتي يا ليجيا وليس بيت روبرت.»

كانت عين أفري الطبية تتفحص الفتاة ولا حظ أنها نحيلة جداً فقال :

«لن يبقى هنا طويلاً ياطفلي وستنتقل إلى كوخه يوم السبت - ألم تسمعيه وهو يقول ذلك؟ - هيا.»

قال وهو يبتسم ابتسامة مطمئنة وينظر إلى عينيها الغامقتين المبتلتين بالدموع :

«لا تدعيه يضايك هكذا. له طريقة شيطانية في المزاج وإذا وجد أنها تؤثر على شخص ما فهو يتأذى من شيء إلى أسوأ. مشكلته أن الجميع يتملقونه. هل تعلمين أنه يمثل جيد حقاً وناجح جداً. ولكن لا تخبريه أبداً أنني قلت ذلك.»

«لا أظن أن هناك احتمالاً أن أقول له يا دكتور تشيز.»

كان الشعور بالكرامة مازال على وجه ليجيا النحيل الشاب وهي تطوي باهتمام منديل أفري ووضعت على المكتب .

«لا أظن أنني أريد التحدث مع ابن عمك في يوم ما. أظن أنه قاس بعض الشيء.»

ضحك أفري وقال :

«لا تدعي جدتي تسمعك وأنت تقولين ذلك عن روبرت أنها تعتبره أحد الرموز الخالدة»

«مثل بلوتو رمز الموتى والجحيم!»

قالت وعيناها تلمعان بشدة :

«نعم بلوتو، لأنني أعتقد أن ابن عمك لا يستطيع أن يبكي إلا بدموع من حديد.»

امتلاً صوت أفري وعيناها الزرقاوان بالاثارة وقال :

«ويحمل برسيغون إلى مثوى الأموات - أليس كذلك؟»

أكملت كأنها على المسرح :

«ثم انفتح باب ودخل منه الضوء.»

قال أفري :

«من الواضح أنك قرأت شعراً أو أساطير إغريقية يا ليجيا.»

ف نظرت إليه بعينين واسعتين مندهشتين وتعجبت :

«شعر؟»

«دموع بلوتو الحديدية، لقد قلتها بنفسك.»

«نعم فعلاً.»

اضاء وجهها للحظة :

«أنا قلت ذلك . أليس كذلك؟»

ثم اقشعرت ومرة أخرى أطبق عليها الشعور بالخواء وبظلام الشخصية المفقودة. شعرت بالخوف يرتفع إلى حلقها ويدق كالنبض غير المنتظم لأن كل ما استطاعت أن تتذكره هو السماء المعتمة فوقها والقمر يتجول بين السحاب الرمادي المتشابك كشعر ساحرة. كان القمر يضيء المستنقعات الممتدة للحظات ثم يختفي ثم يظهر مرة أخرى . وعندما يختفي كانت تبدو رقع الظلال المعتمة وكأنها قنوات بلا قرار. كانت في كل مرة تظهر فيها هذه الظلال تشعر أنها تريد أن تصرخ بأعلى صوتها خوفاً من أن تكون على حافة إحدى تلك القنوات أو الحفر التي ستجذبها لأسفل وتختنقها. وعندما ظهرت أمامها فجأة أنوار هذا المنزل وهي تضيء كالمئزر في وسط الظلمات شعرت كأنها أنوار السماء وركضت في اتجاهها وهي تتعثر بتلال الحشائش والأعشاب العالية. وعندما وصلت أخيراً إلى عتبة هذا الباب كانت قد فقدت كل قوتها وعزمها على الاستغاثة. لا بد أن أهل هذا المنزل سيظنون أنها مجنونة أو مدعية. إن روبرت تشيز يظن ذلك.

ضغطت وجهها البارد في يديها وهي تتلصص في يأس أي شعاع ضوء خافت للظلام عقلها ولكن بلا جدوى . إن كل ما تعرفه أن اسمها ليجيا . قالت بصوت منخفض :

«اني أشعر أنني ولدت لتؤي . إنه شعور فطيع !»

همس أفري :

«لا تقلقي هكذا يا ليجيا - كل شيء سيهدو في حينه.»

«ولكن لماذا يحدث لي هذا ؟ تساءلت عيناها.»

«إنه فقدان ذاكرة هستيري كما نسميه نحن الأطباء ينتج عادة عن مشكلة عاطفية من أي نوع.»

«مشكلة عاطفية ؟ ماذا تقصد بذلك؟»

«قصة حب مثلاً انتهت نهاية سيئة أو مشكلة في العمل أو مشاجرة مع والدك.»

«والدي؟»

ظهر على وجهها تعبير شديد من الخوف والخيرة :

«هل يمكن أن أنسى والدي هكذا تماماً ؟ إني أشعر أنه لم يكن لدي والدان أبداً.»

ابتسم أفري بحنان :

«إن والديين ضرورة لا يمكن أن نستغني عنها.»

وضع أفري ذراعه حول كتفها متجاهلاً محاولتها الابتعاد عنه وقادها من المكتبة إلى البهو قائلاً :

«تعالى وقابلي جدتي العجوز المدهشة. إنها ستفقدك من كل متاعبك. أنت لم ترحها على مائدة العشاء لأنها مريضة وتسير على نظام طعام دقيق لذلك فهي تتناول طعامها في غرفتها. إنها شخصية قوية.»

تمتص ليجيا هامة :

«إذا كانت لا تنهج نهج ابن عمك في التفكير... ألا تتأثر أنت بتفكيره؟»

توقف أفري أمام باب حجرة الاستقبال المزدوج.

«إن ما يعتقد ابن عمي لا يعني شيئاً بالنسبة إلي يا ليجيا . روبرت وحش ساحر وأنا أستمتع بصحبته ولكن كلاً منا له وجهة نظر مختلفة في الحياة . هو ساحر وينظر إلى الحياة كأنها مسرحية . ولكنه سيتعثر ويسقط في يوم ما. سيقع في شر أعماله.»

«إنه قاس .»

هكذا همست ليجيا ، وفجأة ظهرت هالة سوداء تحت عينيها ككدمات زرقاء

وبدا عليها الحزن والتعب . ثم قالت باقتناع غريب :

«إنه يخيفني . هناك شيء فيه يخيفني.»

صاح أفري :

«ليجيا . إن بوب لا يمكن أن يؤذيك . أنا أعلم أنه يظن أنك تدعين فقدان الذاكرة ولكنه ليس شريعاً . من الأفضل لك أن تتجاهلي كل خزعبلاته . هل تعلمين أنه لا يتوقف أبداً عن التمشيل ؟»

تفحص أفري وجهها بدقة ولكنها كانت ماتزال تبدو خائفة . يالللصغيرة المسكينة ! إنها كتلة أعصاب وهذا شيء يفهمه الأطباء . الأعصاب النائرة من أعراض فقدان الذاكرة الهستيرى الذي تعاني منه . تبين له وهو يراقبها أن وجهها الأبيض المعكر وشيئاً ما في مظهرها الضائع قد لامس مشاعره وتجاوز اهتمامه الطبي المجرد . إنها تبلغ من العمر تسعة عشر أو عشرين عاماً على ما يظن . وهي تتكلم كسيدة كما تقول جدته . ولاحظ عند العشاء أنها مهذبة . عيناها جميلتان ورموشها سوداء طويلة تتكاثف بغموض حول حدقتي العينين البنفسجيتين الزاهيتين.

لم يكن أفري - كما عرف عنه - رجلاً خيالياً ولكن عيني هذه الفتاة المشيتين وسط وجهها الحساس الشاحب كانتا تثيرانه بالتأكيد . وتدفعانه إلى التفكير في شخصيتها بشيء من الاثارة الصبيانية . ألقى عليها نظرة فاحصة . كانت الحلة المصنوعة من التويد الرخيص التي ترتديها تنسدل على جسمها النحيل بدون أي رشاقة . وكانت قصيرة القامة صغيرة القدمين في الحذاء الذي أعارته لها جردا . قال ليجيا ويدها على المقابض الفضية لباب غرفة الاستقبال :

«سأخذك غداً إلى برنهام لأشتري لك حذاء يناسبك لأنك ستكسرين كاحلك وأنت تصعدين وتنزلين السلالم بحذاء جردا .»

كان يقول هذا وهو يفتح باب غرفة الاستقبال فسمعت جردا ماقاله واستدارت من باب الشرفة الزجاجي :

«ملا عن حذائي يا أفري ؟ هل اشتكت ليجيا منه ؟»

احمر وجه ليجيا غضباً تحت نظرة الاحتقار التي رمقتها بها جردا وتمنت لو

استطاعت أن تخلع الحذاء وتلقي به في وجه هذه السكرتيرة الجميلة التي تتصرف وكأنها صاحبة المنزل.
«إذاً هذه هي الفتاة؟»

جاء الصوت عميقاً كصوت رجل فانتزع انتباه ليجيا بعيداً عن جردا. بحلفت في جدة أفري تشيز وعلى الفور شعرت بشعور الخوف الذي أثاره فيها روبرت تشيز. لم يكن سبب خوفها أن الوجه الذي واجهها كان أسمر مرتفعاً غضبته التجاعيد ولكن لأن العينين اللتين كانتا تطلان من هذا الوجه المسن كانتا تلمعان بالشباب والشقاوة بشكل يتعارض تماماً مع عيني روبرت تشيز !
تحملت ليجيا بصعوبة نظرة العينين السوداوين المتفحصتين لها.
«ليجيا ! ياله من اسم مضحك !»

قالت السيدة تشيز ثم أشارت إلى الأريكة حيث كانت تجلس وقالت :
«تعالى اجلسي بجانبى ولا تنظري إلى هكذا. فأنا لن أتهمك!»

تقدمت ليجيا بخوف وجلست على الحافة وقلبها يخفق بشدة، ثم قفز قلبها أكثر عندما مدت السيدة العجوز يدها المكروشة التي كان يلمع في سبابتها خاتم ياقوت ضخم وأمسكت بيدها اليسرى ، ثم أخذت في ترو شديد تتفحص يد ليجيا وتقلبها على الناحيتين. وأخيراً نظرت العينان السوداوان إلى وجه ليجيا الخائف ثم قالت :

«كنت تلبسين خاتماً في هذا الأصبع الثالث يا بنيتي .
«خاتم ؟»

نظرت ليجيا بعنف الى يدها التي كانت لا تزال في يد العجوز اليابسه .
فأرت علامة في أصبعها الثالث لا يمكن أن تخطفها العين.
«هل قلت خاتم يا جدتي ؟»

تقدم أفري بسرعة حول الأريكة وأمسك يد ليجيا بعنف وبدون أي مجاملة وهو يتفحص مكان الخاتم الذي كان بلا شك موجوداً. ثم التفت عيناها بعيني ليجيا:

«هل هو خاتم خطوبة أم خاتم زواج؟»

«ما هذا الذي تقولانه عن خاتم الزواج ؟»

انفتحت أبواب غرفة الاستقبال بدون صوت ودخل منه روبرت تشيز بجسمه النحيل الطويل.
«الخطبة تكتمل على ما أرى.»
«مثير جداً يا روبرت .»

كانت جردا هي التي ردت وقد امتلأت عيناها الزرقاوان بحب استطلاع يشف عن نية سيئة وهي تتجول بنظرها من وجه روبرت الى وجه أفري .
«علمنا لتونا أن ليجيا لها زوج.»
«إنه افتراضي فقط يا جردا .»

رد أفري بخشونة ولكن تعبير وجهه لم يكن كذلك وهو يرد نظرة روبرت الساخرة. ثم استطرده :

«اكتشفت عينا جدتنا الحادة علامة خاتم حول أحد أصابع ليجيا . الأصبع الثالث في اليد اليسرى.

ارتفع أحد حاجبي روبرت بسخرية شريرة وأخذ يراقب ليجيا :
قال أفري :

«علامة خاتم على هذا الأصبع بالذات لاتعني بالضرورة خاتم زواج.»
«إنك تأمل ذلك .»

قال روبرت هذا بهدوء ولكن كلماته بدت كأنها قبيلة تنفجر في الغرفة الكبيرة وتوتر الجو.

وضعت جردا يدها على فمها لتخفي دهشتها وسرورها في الوقت نفسه ، وتلفت السيدة تشيز بحدة.

انتفضت ليجيا واقفة وواجهت روبرت بوجه ممتنع ثم صاحت :
«أفصح عما يدور بخلدك ياسيد روبرت - هيا قل.»

«سأفعل بكل سرور.»

قال والدخان يخرج من فمه :

«أظن أنك فقدت عملك لا ذاكرتك، وأنك حضرت الى تشيز لتحصلي على المأكول والمأوى بلا مقابل - في أي حال إذا كنت في عوز وليس لديك مكان لأوين إليه يمكنك أن تقولي ذلك صراحة ولا داعي لأن نخدعينا جميعاً.»

«ولكنني لا أخدعكم».

بدت الدموع في عينيها واستطردت :

«لا يمكنني أن أفعل ذلك - أرجو أن تصدقوني».

تدخل أفري قائلاً :

«طبعاً يا روبرت إنها لا يمكن أن تفعل ذلك... لماذا تشك دائماً ولا تثق في أحد؟»

ردّ روبرت وهو ينفض سيكارته بصبر نافذ :

«لماذا؟ لأنّ تمثيلية فقدان الذاكرة سهلة التنفيذ».

التفت عيناها الساخرتان بعيني أفري . واكتفى وجه أفري بالفضب.

«لا أظن أنني قابلت شخصاً لا يثق بأحد من الناس مثلك يا بوب - لا بد أن في

داخلك ما يؤلك بشدة ليجعلك هكذا. ما هو بحق الشيطان؟»

انفعلت ليجيا بهذا المشهد لدرجة تقترب من المستيريا . وانكمشت بعيداً

عن الجميع وبدت الستائر الزرقاء والشرفة المغطاة بضوء القمر خلفها كخلفية

مسرح - وكانت أبواب الشرفة مفتوحة قليلاً وبدأ قلبها يخفق بشدة وبعصبية .

إنها تستطيع بحركة صغيرة أن تنطلق خارج هذا المنزل وتضي بعيداً.

«لا يا عزيزتي - لا داعي لأن تفعل ذلك».

أطبقت أصابع دافنة على معصمها الأيسر :

«أنت لست مضطرة للهروب في الظلام مرة أخرى».

«هل أنا أهرب يا دكتور تشيز ؟».

«نعم ، إن رجلاً سبّب لك الذعر على ما أعتقد».

«رجل؟»

حاولت أن تتذكر . أن تسترجع الوجه المنسي إلى ذاكرتها ولكن لم يكن هناك

شيء . لا شيء البتة . كانت هناك فقط علامة الخاتم الغامضة حول أصبعها

وخوفها الغريب من روبرت تشيز . خوف لا علاقة له بعدم ثقته فيها أو عدم

استلطافه لها . خوف جعلها تبحث عن يد أفري وتتعلق بها بشدة.

٢ - يوم سبت عادي

القت شمس الحريف أشعتها من خلال الستائر الوردية وسطعت على السرير
الكبير وغمرت ليجيا المتكورة فيه بضوئها . واستمرت ليجيا في نومها
العميق حتى اخترق الضوء سباتها فاستيقظت .

انتقلت عيناها إلى النوافذ والتقطت أذناها زقزقة الطيور في الصباح . ثم
سمعت صوتاً آخر ، صوت حوافر حصان ، وذهبت إلى النافذة لترضي فضولها ،
فاكتشفت أن غرفتها تطل على فناء محاط بسور من النباتات .

وكانت الشمس تغمر الفناء والحصان الواقف فيه وتجعل رأس فارسه لامعاً .
للمست يد ليجيا على الستارة وفي اللحظة نفسها قبل أن تختفي داخل
الغرفة نظر روبرت تشيز إلى أعلى ورأها بعينيها الداكنتين الجامدتين كالعقيق
الأسود في ضوء النهار .

نظر روبرت في عيني ليجيا مباشرة فتضّرّج وجهها بحمرة الخجل . ثم
أملت يدها الستارة كأنها حرقتها ، فسقطت على الفور في مكانها وأخفت روبرت
لشيز التحيل عن بصرها .

ولفت إلى جانب النافذة كحيوان وقع في الفخ . ثم ارتفعت الأصوات من
أسفل عندما انضم حصان آخر لحصان روبرت . وارتفع صوت جردا ميتلاند
وهي تقول :

«إنك تبدو ظريفاً يا روبرت».

ثم ارتفعت ضحكاتها المغرية:

«وأنا، هل أذكرك بشيء ظريف؟»

«طبعاً يا عزيزتي. إنك تذكرينني بذلك النوع من الصابون الذي يجعل البشرة كبشرة بنت عشرين!»

«إنك متوحش يا روبرت!»

اختفت الأصوات وهما يبتعدان بحصانيتها في الفناء.

كانا ذاهبين بالطبع الى كوخ روبرت. فكرت ليجيا وهي تنظر الى نفسها في المرآة. كان وجهها يبدو غريباً عليها وجسمها يختفي في ثنيات قميص النوم الوردي الذي أعارته لها جردا.

كانت مندهشة ومزعورة في الوقت نفسه. برغم طمأنة الدكتور تشيز لها. إنها لا تستطيع أن تتذكر إلا ما حدث منذ وصولها لهذا المنزل. أما قبل ذلك أو خارج هذا المنزل فهي لا تذكر شيئاً.

نظرت - وقد غمكها الخوف - إلى علامة الخاتم حول أصبعها ثم تذكرت ما قاله روبرت أنها لجأت الى تشيز ليزودها بالماكل والمأوى المجاني. وتذكرت المشهد كله وكيف أن السيدة تشيز هبت لانتقاذاها وبددت بكلماتها جو التوتر الذي انتشر في الغرفة بعد كلمات روبرت اذ قالت:

«إنك منفعلة أكثر من اللازم يا صغيرتي. وفي حاجة الى النوم.»

ثم انتقلت نظرتها الى روبرت وقالت وهي تدفعه في صدره:

«أما أنت يا ولدي فيجب أن تكف عن مضايقة صيوفنا. قد تكون التقاليد في أوساطكم الفنية تقضي بأن تتراشقوا بالاهانات بينكم ولكننا في منزل تشيز لن نفعل هذا - هل تسمعي؟»

«إني أسمعك يا جديتي.»

أجاب روبرت تشيز وقد اختفت ابتسامته الوقحة وحلت محلها ضحكة صبيانية خائفة.

«هل تذكرين يا جديتي كيف كنت لا أحتمل ضربك وكيف كنت أصرخ؟»

«لا تحاول أن تستدرجني.»

أدارت السيدة تشيز ظهرها لروبرت بغضب ولكن الابتسامة التي مرت

بوجهها أفهمت ليجيا أنها مستعدة لأن تغفر لهذا الرجل الأسمر التحيل أخطاء أكثر من ذلك بكثير - بل وأكثر من ذلك شعرت ليجيا أن السيدة تشيز اصططعت الغضب من روبرت لتمتع أفرى من التعبير عن غضبه الخلفي فقد كان على وشك الانفجار. وشعرت ليجيا فجأة بالاحراج الشديد. «أرجوكم دعوني أذهب. لا أستطيع أن أبقى هنا.»

«كلام فارغ...»

هكذا قالت السيدة تشيز باقتضاب:

«إنك متعبة وخيالك متأرجح فأين تستطيعين البقاء؟ في المستنقعات؟»

هزت رأسها بدون أن تنطق.

«أقصد أنني أستطيع الذهاب الى المستشفى.»

قال أفرى:

«لا حاجة بك للمستشفى.»

بشكل مالم تستطيع ليجيا مقاومته عندما أمسك بإحدى يديها وسحبها عبر البهو ثم أخذ يراقبها وهي تصعد السلالم الى غرفتها ثم أحضرت لها الخادمة كوباً من الحليب الدافئ. فشربته وكانت تشعر أنها تريد أن تبكي ولكن شدة التعب غلبت عليها فنامت.

بعد الغداء نفذ أفرى وعده واصطحبها الى برتسام في سيارته ليشتري لها حذاء. ولكن لشدة خجلها كان قد عقد العزم على أن يشتري لها أشياء أخرى غير الحذاء.

وعند عودتها الى تشيز كان المقعد الخلفي للسيارة قد امتلأ بالأغراض والصناديق وكانت ليجيا تجلس في سكون بجوار أفرى وهي تشعر بالضييق وعدم الرضى عن كل هذه المشتريات. أخيراً كان يجب أن تقول شيئاً. «كل هذه الأشياء...»

قالت وهي تشير الى المقعد الخلفي وأضافت:

«لأذكرني بما قاله ابن عمك بالأمس. كنت أود ألا تصر على شرائها. لن أشعر براحة في ارتدائها.»

«أما هذا الذي تقولينه، أرجو أن ترتديها.»

ابتسم لها وهو يدير السيارة لتدخل الممر المؤدي الى المنزل. وكان البيت الرمادي القديم المحاط من جانبيه ببرجين متآكلين على قمة هضبة تحيط بها حديقة خضراء. والمستنقعات البنفسجية والذهبية تمتد تحته كتنورة ملونة.

«أرجوك يا ليجيا. لا شعري بالمضايقة بسبب هذه الملابس القليلة.» ثم أخذ أفري يلاطفها:

«في أي حال لم يكن ممكناً أن تبقى بحلة واحدة وطقم واحد من الملابس الداخلية إلى مالا نهاية.»

«مالا نهاية؟»

نظرت إليه باستعطاف:

«ولكنك قلت إنني سأذكر كل شيء عن نفسي وسأذكر بسرعة.»

«أوه يا عزيزتي، ستذكرين عندما يحين الوقت، طبعاً ستذكرين» وطمأنها:

«لكن إذا كنت وحيدة في العالم ولم يسأل عنك أحد فسأعتبر نفسي... وصياً عليك. في الوقت الحالي فقط.»

كان وجهه الأشقر يبدو رقيقاً.

«فقط تخلفني من مخاوفك وسينتهي كل شيء بخير إن شاء الله.»

«ولكنك قلت بالأمس إنني قد أكون... قد أكون متزوجة أو مخطوبة.» شدت على يديها بعصبية وقالت:

«يا دكتور تشيز لا أريد أن اكتشف أنني متزوجة إلا أريد ذلك.» «أرجو أن تناديني باسمي أفري.»

ثم أوقف السيارة فجأة تحت أشجار الصنوبر واستدار لينظر إليها:

«استمعني يا صغیرتي، مرّ عليك يومان وأنت في تشيز ولم يبلغ أحد بفقدك. وأنا لا أغفل زوجاً أو خطيباً يمكن أن يكون غير مبال إلى هذا الحد.»

وقال وهو يبتسم:

«الزوج يقدر زوجته أكثر قليلاً مما يقدر كتاباً أو لفة من البقول. وقد لا يسأل إذا ضاعت منه هذه الأشياء ولكن إذا لم تعد زوجته إلى المنزل فإنه يطير إلى البوليس.»

«ولكن إذا كنا قد تشاجرنا - في هذه الحالة قد لا يشغل نفسه بالبحث عني.» «هل تشعرين أن لك زوجاً يا ليجيا؟»

سأل أفري وهو يبتسم كما لم يبتسم الليلة الماضية. كان يبدو غريباً في وضوح النهار أن هذه الطفلة النحيلة ذات الشعر الأسود لها زوج، ولكن لم يكن يبدو عليها الشعور بالاطمئنان الذي تضفيه الثقة بالنفس والحنكة التي تكتسب من الزواج.

زوج؟ أخذت تلك الكلمة في فمها كأنها كلمة غريبة معناها غير مفهوم لديها. زوج؟ نقلت نظرتها إلى أفري وأخذت تتأمل سترته والساعة في معصمه وكل علامات الرجولة الملحوظة فيه وتقلبها في ظلام عقلها لعل أحد هذه الأمور يضيء النور لها ويذكرها بشيء. وفطن أفري إلى ما يدور بتفكيرها فhez رأسه: «لا يا ليجيا... لا تحاولي... لا تضغطي على عقلك كما لو كنت تضربين حماراً متعباً بل دعيه يستريح وينام كما يشاء. ودعيه يصحو عندما يستطيع ذلك.» عندما وصلا إلى المنزل كانت جردا ميتلاند وروبرت قد عادا من رحلتها وكانا يحتسيان الشراب والعصير في الشرفة. وأخذ روبرت يراقب بسخرية عملية أخذ الرزم والصناديق من السيارة وعندما مرت ليجيا بجانبه صاح قائلاً:

«هالو ليجيا، هل قضيت وقتاً طيباً؟»

احمر وجه ليجيا حرجاً:

«أرجوك أنا لست...»

صرخت عندما زلت قدمها على السلم المؤدي لغرفة الاستقبال وسقطت وسط كل الرزم التي كانت تحملها. استمرت جالسة على الأرض وهي تتمنى لو تقوت. وعندما انحنى روبرت وجذبها واقفة قاومته بشدة:

«الركني!»

فالتها وهي تصرخ وتقاوم يديه.

قال أفري:

«نعم. اتركها يا بوب. وأوقف مضايقاتك لها تماماً لأنني بدأت أتعب من ذلك.»

وعندما واجهتها نظرتة الراضة احمر خداهما الناعمان قليلاً. وقالت:

«التواضع الزائف يضايقتي والأفضل أن أعترف أنني أجذك ساخراً...»

«كل هذه التصريحات الخطيرة في هذا المكان الشاعري يا عزيزتي!»

وأشار روبرت بيده النحيل إلى الشرفة الممتدة وضوء الشمس عند المغيب وهو يتعكس على النوافذ وأشجار الصنوبر الطويلة الرشيقة التي تمتد حتى المنزل وتشر رائحتها الذكية. والتفت إلى جردا وقال:

«أنت امرأة فاتنة - وأنا غدد - وغدد لعين - ألسنت خائفة إذا؟»

عندما نطق بهذه الكلمات قفز تعبير طفيف إلى عيني جردا :

«خائفة؟»

ضاع صدى الكلمة في أعالي الشجر وضحكت وأخذت رشقة من مشروبها:

«لست خائفة على الإطلاق . ألم أذهب معك إلى كوخك المنعزل؟»

«إنك صريحة تماماً.»

ضحك روبرت في وجهها المتوهج:

«كما أنك تهينيني أيضاً - ماذا كنت تظنين أنني فاعل بك في كوكبي المنعزل؟»

قالت بلا خجل :

«ظننت أنك ستقبلني . لماذا لم تفعل؟»

«لماذا لم أفعل؟»

قال ذلك وهو يتسم بطريقة غامضة ثم أضاف :

«لم أفكر في ذلك يا جميلتي . هل من المفروض ألا أفكر إلا في الاغراء؟»

«حسناً . إن لك سمعة مريبة - أليس كذلك يا روبرت؟»

نظرت إليه وهو يقف مستنداً إلى حائط الشرفة بسمرة ، وعدم اهتمامه الوقع برأي الآخرين . فتأكدت أنها تريد شيئاً أكثر من إعجابه . إنها تعلم أنه ليس رقيقاً كما أنه لا يستطيع أن يبقى مخلصاً . ولكن هذا لا يهم ، إنها تريده هو . بدأت تسأله :

«هل حقاً ستعيش وحدك في هذا الكوخ ولا يؤنسك في المساء غير اليوم؟»

قال :

«اليوم وصوت تقصف أوراق الأشجار وسقوط المطر في المساء.»

كان يضحك بخبث وهو يراقبها.

«طبعاً . سأعيش هناك.»

«من سيعتني بك ؟ هل ستحضر السيدة وودز من شقتك في لندن؟»

«لا يا عزيزتي.»

تساب ونظر إلى السماء بتساؤل . بينما كان السحاب يمر وقد اكتسب شيئاً من حمرة الشمس التي بدأت في المغيب . وكانت أصوات الطيور تترامى من الحديقة والنسيم يهب فيحرك شعر روبرت ويحمل معه رائحة أعشاب المستنقعات . «لا ، لن أحضر الطاهية وودسي . سأطهو طعامي بنفسي . ستحضر إحدى السيدات لتقوم بالتنظيف ولكن بشكل عام سأمتنع بمكان ريفي . لقد توقف الاعداد للمسرحية الجديدة ولكني رغم ذلك سأحفظ النص.»

أخذت جردا تتفحص أظافرها ثم قالت :

«لا أعلم لماذا لا تبقى هنا في تشيز .»

«ألا تعلمين؟»

تساءل وهو يتسم ابتسامة عريضة :

«الأنارب ممتازون ولكن فقط إذا لم يضطر الانسان لرؤيتهم كثيراً . وفي الحقيقة أنا رجل يحب الوحدة.»

«هل أنت كذلك؟»

نظرت إليه جردا بشيء من الاحتقار :

«إنك أحد النجوم التي يعشقها المجتمع في لندن وأنت تعلم ذلك - أنت تحب الاطراء والتملق وأظن أن هذا هو الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تحبه.»

«هذا ليس صحيحاً يا جميلتي - إنني أحب كلياً أيضاً.»

وفي اللحظة التالية استدار وذهب ليدخل المنزل .

مرت نهاية الأسبوع بهلوفقد ترك روبرت منزل تشيز صباح السبت إلى كوخه حيث يرتب الأثاث الذي أتى به من لندن . وعندما نزلت ليجيا من غرفتها وجدت أنه انصرف شعرت كأنها فأر صغير تخلص من مضايقات قط

كبير

ذهبت إلى المكتبة وأخذت تقلب الكتب الموجودة فيها وفي الساعة الحادية

عشرة تقريباً أحضر ديفيد ، كبير الخدم ، القهوة وهو يفسح الطريق بأدب ، تسبقه

السيدة تشيز الى داخل الغرفة قامت ليجيا، التي كانت متكورة في أحد الكراسي الجلد الكبيرة غارقة في نسخة قديمة من أساطير أنغولد سبلي، ووقفت وهي تحس بشعور الشخص الدخيل عندما وضع ديفيد في صمت صينية القهوة الفضية أمامها.

«أوه! أشكرك»

نظرت الى وجه كبير الخدم، ولكن عندما رأت نظرة الازدراء الباردة أرخت جفניה بسرعة وفهمت أن أفري أمر الرجل بأن يحضر لها القهوة. لكن القهوة كانت ساخنة ولذيذة فوقفت تحتسيها بينما أخذت السيدة تشيز تراقبها. وقالت رداً على تساؤل ليجيا الصامت:

«إنها كريهة بدون كريما وسكر. وأنا مريضة بالسكر».

«أهذا صحيح؟»

نظرت ليجيا الى السيدة العجوز بعطف وهي تتذكر ما قاله أفري من أن لديها مرضاً يجعلها تتبع نظاماً غذائياً دقيقاً. قالت في نغمة جافة بصوتها العتيق:

«لا تشغلي بالك. مرض السكر مرض مريح إذا كان هناك طبيب في المنزل. هيا اشربي قهوتك بسرعة لنخرج الى الحديقة حتى تصبغ الطبيعة وجهك بلون وردي».

قالت ليجيا على الفور:

«آه، إنني أحب أن أخرج للحديقة».

كانت رؤوس الأشجار الطويلة وألوان الأزهار المفرحة تبدو من نوافذ غرفة المكتب ولكنها كانت تخشى المجازفة في الخروج بمفردها إلى الحديقة، لأنها كانت تشعر دائماً بأنها دخيلة رغم توصيات أفري المتكررة بأن تتجول في المنزل والحديقة كما تشاء. كانت تعلم أن أفري هو صاحب المنزل ولكن نظرات الخدم المتسائلة كانت تجعلها تشعر بعدم الراحة.

«هل تأنين إلينا الآن أكثر من ذي قبل؟»

سألتها السيدة تشيز وهي تقف بجانب مكتب أفري وترى بصير نافذ مظهره غير المنظم. ثم التفتت بضيق وبدون انتظار من ليجيا مندبلاً حريراً

كان من الواضح أنه استعمله في تنظيف قلمه الحبر ثم قالت:

«أنظري إلى هذا»

«ماذا يمكن أن تفعل بهذا الرجل. حقاً إنه ليس معدماً ولكن هذا لا يعني أن يستعمل مناديله الحبرية لتنظيف أقلام الحبر أو أن يستعمل هذا الطبق الصيني النادر كمطقة لسكاته».

تتبع ليجيا نظرة السيدة العجوز إلى الطبق الأزرق الغامق ذي الرسم الجميل في منتصفه وقد امتلأ بأعقاب السجائر وعليها علامات أحمر شفاه جردا.

«إنه هكذا غير منظم منذ كان طفلاً».

ثم أفرغت ما بالطبق ونظفته بالمندبل المستعمل.

«لم يكن لديه أبداً تقدير للأشياء والممتلكات الجميلة كتقدير عائلة تشيز. وأنا أفشعر عندما أفكر فيما سيؤول إليه الحال عندما أغيب عن هذا المكان. للأسف إن روبرت لم يكن خليفة ابني الأكبر لأنه يقدر أكثر من أي شخص آخر أي قطعة صيني أو زجاج ثمينة - أما أفري فهو لن يعرف ما إذا كان يأكل من طبق كلب أو يشرب من كوب فرشاة أسنان وأعتقد أنه سينتهي بالتضحية بكل الأشياء الجميلة في منزل تشيز من أجل العلم. إنه يستطيع أن يفعل ذلك».

تهددت ولاحظت ليجيا يدها المتكرشة المرتعشة وهي تعيد الطبق إلى مكانه.

«عشت سنوات طويلة في هذا المنزل يابنيتي - جنته وأنا عروس ولي من العمر سبعة عشر عاماً. والانسان يصبح جزءاً من أساس المنزل وجدرانه بعد خمسة وستين عاماً».

همست ليجيا:

«خمسة وستون عاماً».

«كم هو جميل وفي الوقت نفسه كم هو محزن أن يختلط نسيج عمر الانسان مع جدران منزل. ثم يستمر هذا المنزل طويلاً بعد أن يكون هؤلاء الأطفال الذين عاشوا فيه ولعبوا وضحكوا ومارسوا الحب في كل جوانبه قد أصبحوا مجرد ذكرى».

«لعمري يا بنيتي أنا عجوز ولدي ذكريات كثيرة ولكنها مرتبطة بهذا المنزل. هل

تظنين أن تشيز منزل جميل؟
أجابت ليجيا على الفور:

«نعم بالطبع.»

«إنه يسحرني بأبراجه العالية وأشجار الصنوبر الشاهقة وإنسي أسمع أشجار الصنوبر وهي تتناجى في المساء فتجعلني أشعر بأنني لست وحيدة.»
«هيا بنا لنلحق قليلاً من شمس الحريف.»

قالت السيدة تشيز ذلك وهما تخرجان من باب المكتبة إلى الحديقة.

لم تكن حديقة مخططة بل كان يختلط فيها كل شيء بسحر منزل تشيز نفسه. كانت النباتات بأشكالها وألوانها المختلفة تنمو جنباً إلى جنب وتختلط ببعضها بشكل جميل. وكان الماء تحت أحواض الزهور البنفسجية والأرجوانية والحمراء يتفرق في جدول متعرج تقفز فيه أسماك الزينة الذهبية الصغيرة وتحيط بزنايق الماء البيضاء الجميلة. وكان يمر فوق الجدول جسر صغير من أحجار الصوان الدقيقة. قدمت ليجيا ذراعها للسيدة تشيز لتستند عليها وهما تنزلان بين الورود البنفسجية والزرقاء وتعيان الجسر وتسيران تحت ظل أشجار الأرز الباسقة وتصلان إلى حديقة السيدة تشيز الخاصة، مصدر متعتها الكبرى حديقة الأعشاب. كانت ليجيا مفتونة تماماً بأنواع الأعشاب الكثيرة الغريبة لدرجة أنها نسيت خجلها من عيني السيدة تشيز السوداء الفاحصة ولسانها السليط أحياناً وأخذت تسألها عن استعمالات الأعشاب المختلفة.

قالت السيدة تشيز وهي تضم يديها وتعيث بخافتها ذي الياقوتة الضخمة: «عندما أشم رائحة الليمون أتذكر قطع الكعك في غرفة الأطفال الكبيرة وكيف كان والد روبرت يحبها. كان ابني المفضل - هناك دائماً ابن مفضل - يأمل الشخص أن تتجسد فيه آماله. ولكنه خيب آمالي من وجوه عدة.»
وقبل أن تفكر ليجيا جيداً في كلماتها وجدت نفسها تقول:

«هل روبرت يحب آمالك يا سيدة تشيز؟»

«روبرت؟»

ومضت عينا السيدة تشيز تحت جفنيها المتعبين:

«لماذا تسأليني عن روبرت؟»

اشتد حرج ليجيا وتفاادت نظرة السيدة تشيز المتسائلة. فسرت ليجيا ما تعني وهي تتعثر:

«يبدو أنك تغفرين له كل ما يفعل كما يغفر الإنسان لابنه المحبوب رغم أنه ليس ابناً طيباً.»

«تقصدين تسلياً بالأمر الواقع؟»

كادت السيدة تشيز تضحك:

«إنك طفلة ثاقبة الفكر أليس كذلك؟»

«هل أنا كذلك؟»

تفرست ليجيا في وجه السيدة العجوز لتتأكد، أنها لا تسخر منها ولكنها وجدت فقط نظرة غريبة متعبة بدلاً من الابتسامة التي كانت على شفثيها منذ لحظة ولم تستغرب عندما قالت السيدة تشيز:

«هيا بنا نعود - اقترّب وقت الغداء.»

عادتا من طريق آخر يمر بأحواض زهور أكثر تنظيماً يتخللها سياجات من الأشجار الصنوبرية المشدبة جيداً. كان هناك رجل عجوز ينحني على حوض رائع من زهور الداليا طلبت منه السيدة تشيز أن يقطف لها مجموعة منها. ثم أخذت تطوي الرجل العجوز:

«لقد تفوقت على نفسك هذا العام يا تاجر. إني معجبة بهذه الزهور ذات اللون العاجي والقلب الأخضر.»

«إنها جميلة فعلاً يا سيدتي ولكن الخنافس تتعلق بها. هذه هي مشكلة زهور الداليا.»

أخذت السيدة تشيز زهور الداليا منه ووضعتها بين ذراعي ليجيا:

«أظن أن بعض الخنافس لا تهلك - أليس كذلك؟ أم أنك من أولئك الفتيات المحذقات؟»

ابتسمت ليجيا قليلاً وهزت رأسها بالنفي.

ثم فجأة وبلا مقدمات استدارت السيدة تشيز إلى البستاني وقالت له:

«تاجر هذه هي السيدة الصغيرة التي سمعت كل شيء عنها بلا شك في المطبخ.»

أخذ يتفحصها بعينيه الحادتين ثم قال:

«إنها تبدو مندهشة حقاً كما يقال عنها يا سيدتي».

ثم قال بشبه ابتسامة في عينيه :

«بعض الناس يجب أن يضلوا الطريق قبل أن يعثروا عليه».

قالت السيدة تشيز لليجيا وهما تدخلان المنزل:

«كان تاجر العجوز صبي يستاني عندما جئت الى هنا كهروس».

«إنه أحد الأصدقاء القلائل الباقين لي . هربت يا عزيزتي وتركت الجميع تقريباً

ورائي ... ها هو ديفيد».

رأت رئيس الخدم الكتيب فنادته عبر البهو:

«ديفيد أحضر لي بعض أواني الزهور الى المكتبة. تلك الغرفة أصبحت تبدو

كحجرة للتدخين وسأضفي عليها جواً بهيجاً ببعض الزهور».

«نعم يا سيدتي».

بدأ عليه عدم الرضا وتبعته السيدة تشيز بنظرة قاسية وقالت :

«ديفيد لا يوافقني يا بنيتي».

دخلت المكتبة . ثم استدارت تنظر لليجيا بصبر نافذ وهي تنقل الزهور من

يد الى اخرى كأنها تفكر في التخلص من الزهور والخنافس معاً يالقائهما مرة

أخرى في الحديقة.

صاحت السيدة تشيز :

«أوه . تعالي . أدخلي . لا تخافي من الخدم - لا شيء يعجبهم أكثر من ذلك».

وعندما دخلت ليجيا الغرفة قالت السيدة تشيز :

«روبرت يظن أنك خادمة أو وصيفة إحدى السيدات . هل أنت كذلك؟»

كانت السيدة تشيز طيبة بطريقة غير متوقعة حتى الآن لذلك جاء هذا

التغيير المفاجيء والعودة للشك كصفعة على وجه ليجيا.

أرخت ليجيا عينها فألقت رموشها ظلالة عليها وقالت :

«لا أعلم يا سيدة تشيز ولكني أعلم أنني لا أريد أن ابقى هنا طالما هناك شك

حولي . إنني أفضل أن أذهب الى مستشفى».

«ولكن أفري يفضل أن تبقى هنا».

قالت السيدة العجوز ذلك وهي تضحك لنفسها وجرت عيناها كعنكبوت على

وجه ليجيا الشاب - وعندما تكلمت مرة أخرى كانت تراقب يد ليجيا

اليسرى النحيلة ذات المظهر البائس كوجهها. ثم قالت بصراحة شريرة:

«أنك لست جميلة يا ابنتي ولكن الرجال لهم أذواقهم الغريبة. هل يعجبك

أفري؟»

أجابت ليجيا ببساطة:

«نعم، إنه طيب بطبيعته».

«هراء! ما من رجل مثالك لكل قواه العقلية يكون طيباً بطبيعته مع امرأة . إذا

كان طيباً فهذا لأنه يأمل أن تصبح طيبة هي الأخرى».

نظرت السيدة تشيز بسخرية إلى ليجيا التي اتسعت عيناها باحتجاج:

«وهذا ينطبق على أفري أيضاً رغم مظهره الطيب».

ولكن ليجيا تذكرته في السيارة بينما كانا عائدتين من برنشم في اليوم

السابق . وتذكرت كم كان عطوفاً عليها كأخ ولم تستطع أن تصدق إحصاءات

جده عنه . على كل حال لم تكن كما قالت السيدة تشيز جميلة وليس لها أي

بريق ولا بد أنها تبدو بجانب جردا ميتلاند كغراب حقير بجانب عصفور

كناري جميل.

مر باقي يوم السبت بدون أحداث . ولكن في المساء وجدت السيدة تشيز

«سدعة على الشرفة فتنبأت بأن الجو سيظهر، وأمطرت فعلاً واستمر المطر طوال

الليل . ولكنه توقف صباح الأحد. وأحضر أفري معطف مطر لليجيا وأخبرها

وهو يتنسم أنه سيصحبها للنزهة في طرقات ديفون.

«وهذا يثبت أن رأيي فيك كان سليماً»
«رأيك في؟»

«نعم ! إنك طبيب بطبيعتك».

تسلقت إحدى العتبات ثم ضحكت بشقاوة عندما لاحظ حذاءها المبتل
فانتهرها لسيرها في الماء قائلاً :

«هذه هي الطريقة الأكيدة لتصايي بالروماتيزم - أيتها الشيطانة الصغيرة»
ثم ساعدها للنزول عن العتبة - فقفزت وسط بعض الحشائش العالية المبتلة
وعندما بللت قطرات الماء أطراف معطفها ضحكت بانطلاق وقالت بشيء من
السرور :

«أوه ! إنني أحب كل هذا الماء - لا بد أنني كنت بطة».

«نعم» ان روح بطة ربما خلت في!

أخذت تركض وتسابق أقرى وشعرها المقصوص أسود فاجماً كجنح طائر
وأكمام معطف المطر الذي تلبسه تتدلى واسعة وطويلة على يديها. فكر أقرى
أنها تشبه غراباً صغيراً نشط فجأة. وأخذ يضحك بهدوء ثم أسرع خطواته وهو
يتبعها في الحشائش المبتلة.

عندما وصل الى الناحية الأخرى من الحقل كانت ليجيا تنتصت إلى
أجراس الكنيسة القريبة. أعجبتها أصوات الأجراس فقالت :

«أليس هذا صوتاً جميلاً يا دكتور تشيز؟»

سرت إليها رائحة الأسوار النباتية والحقول فشعرت فجأة أن كل هذه الأشياء
جديدة لم تألفها. لم يحدث من قبل أن تمشي في طرقات ديفون في صباح يوم
أحد. وسمعت أجراس الكنائس بأصواتها المطمئنة عبر الحقول في الحريف. كما أن
الرفاهية التي كان يسبح فيها منزل تشيز لم تكن معروفة لها في حياتها السابقة
التي لا تذكرها.

قالت بصوت خفيض مرتعش :

«هل تعلم يا دكتور تشيز أنني لا أستطيع أن أستغل عطفك أكثر من ذلك».

قال وهو يتسم:

«أليس أقرى العطف هو الشمس التي تنمو فيها الفضيحة. ومن الجائز أنني

٣ - شوكة في العين

كانت زهرة قفاز الثعلب ذات اللون الأرجواني تتدلى مبللة ونظيفة على جانبي
الطرقات. أما حشيشة العُطاس بورودها الصفراء الزاهية فكانت تخفف من كآبة
جو الصباح. وكانت ليجيا تسير بجانب أقرى وتتصت باهتمام إلى حديثه
عن منزل تشيز والحديقة التي كانت تتفرع فيها هذه الطرقات منتبهة إلى
الطريق الرئيسي.

ثم تطرق الحديث بطريقة طبيعية وبانسجام بينهما إلى أمور شخصية خاصة،
فسألته ليجيا عن السبب الذي دعاه لترك عيادته في لندن فأجابها:
«لأنني مهتم بمرض لا علاج له. الأمراض الأخرى يتم علاجها بمجرد تشخيصها،
وذلك المرض هو الروماتيزم».

«الروماتيزم».

هز رأسه بالأعجاب وأخذ يشرح لها أن كثيرين من مرضاه السابقين كانوا
يعانون بشدة من هذا المرض المؤلم وأن العلاج المتاح يريح المرضى لفترة قصيرة
جداً. ولهذا السبب كرّس نفسه لدراسة مفصلة وهو يأمل أن يستطيع إنتاج دواء
له فاعلية أكبر من أي من الأدوية الموجودة حالياً.

صاحت ليجيا :

«أظن أن هذا شيء رائع»

ثم استطردت :

أبحث عن الفضيلة.»

هتفت بحماس :

«إن لديك أطناناً من الفضيلة.»

«لم يخطر ببالك أنني قد أقوم بخدعة ما، ولكن ابن عمك يظن ذلك ويظن أنني أخطط للحصول على كل ما أستطيع منك ولكن هذا ليس صحيحاً.»
«أنا أعلم أن هذا غير صحيح، وأرجو أن تتسي روبرت.»

استدارا معا للعودة الى تشيز:

أظنه الآن يصارع مع قطع الأثاث المختلفة وسكرتيرتي - قالت إنها ستذهب لمساعدته في ترتيب المكان ولكن لا أعلم إذا كان هو قد دعاها أم لا.»
«يبدو أنه يستلطفها - أليس كذلك؟»

قالت ليجيا وهي تذكر نظرات روبرت إلى أكتاف جردا البيضاء مساء يوم الجمعة وكيف عزف الاثنان ثنائيات على بيانو غرفة الاستقبال.
«إنها جميلة جداً - وعندما أكون معها في نفس الغرفة أشعر بأني بطة قبيحة جداً شعري القصير.»

مررت ليجيا يديها الصغيرتين بسرعة في شعرها مما جعله منتفشا وعندما نظر اليها أفري انفجر ضاحكا ثم قال مستعظفا:

«أيتها البطة القبيحة الصغيرة - عديني بأنك لن تتحول أبداً إلى بجعة.»
ابتسمت ابتسامة مزوجة بعدم الثقة... بجعة ! ثم دفعت يديها في جيوب معطف المطر الطويل وضربت الماء على الأرض بقدمها وفي هذه اللحظة تذكرت ما ألحقت به جدة أفري بالأمس. نظرت إليه بعينيها البنفسجيتين فالتفت عيناها وخفق قلبها بعنف عندما قال :

«إنك لست قبيحة يا عزيزتي - لديك أجل عيني رأيتها في حياتي.»
الأسبوع التالي ظهرت تباشير الخريف بوضوح في تشيز فبدأ الضباب يغطي الحديقة صباح كل يوم ، سمعت زقزقة العصافير المهاجرة وبدأت تطير في رحلة العودة . واكتست أوراق النبات المتسلق الذي يغطي جدران أبراج منزل تشيز بحمرة مشرقة جميلة.

كان اليوم الجمعة - وقد قضت ليجيا فترة بعد الظهر في الحديقة وهي

تساعد تانر في كنس أوراق الشجر. وعندما حل الغسق قالت لتانر العجوز وهي تنظر إلى الممرات النظيفة:

«سأدخل الآن، أظن أنني جعلت الحديقة تبدو أكثر ترتيباً.»

كان تانر يتقبل وجودها في الحديقة كما يتقبل نبتاً صغيراً جديداً. كان يحكي لها لساعات طويلة ومنه تعلمت الكثير عن ديفون وتقاليدها، وكذلك عدة أمور هامة عن عائلة تشيز . ومنها على سبيل المثال أن جدة أفري كانت من عائلة تشيز أيضاً قبل زواجها. وأنها تزوجت ابن عمها طبقاً للتقاليد وحفاظاً على ثروة العائلة. ولكنه لا يعلم إذا كانت قد سعدت في حياتها. فقد قيل إنها كانت تريد أن تسلك طريقاً خاصاً بها. ولكن العائلة كان يتأصل فيها حب الملكية في ذلك الزمان. أما الجيل الحالي فهو مختلف تماماً وخاصة الدكتور تشيز الذي لا يهتم إلا بما يخص أبحاثه. أما السيد روبرت فهو لا يعلم ما بدخيلة نفسه. فكل حديقة لها أعشابها المختلفة ومنها ما يمتد جذوره أعمق مما يمكن انتزاعه.

قالت ليجيا :

«السيدة تشيز تحبه كثيراً.»

«الحب في القلب أحياناً كالمهاز في الجنب . إنها تعرفه جيداً يا أنسة.»

تذكرت ليجيا هذا الحديث وهي تراقب تانر يشحم المقص وفكرت باندهاش في تشبيه الحب - بالمهاز في الجنب - هل هذا هو الحب ؟ فجأة قالت :

«تصبح على خير يا سيد تانر.»

وانتهت الى المنزل. كانت الغريبان تطير حول الأبراج ، وقرص الشمس الأحمر المائل الى الغروب يعكس الأشعة الحمراء على نوافذ البيت الكثيرة . بينما كانت ليجيا تقفز سلالمة الشرفة متجهة الى غرفة الاستقبال ، وعندما فتحت الستائر الزرقاء ودخلت، شمت رائحة قهوة وسكاثر معينة جعلتها تتوقف فجأة - ثم تراجعت لكن صوت جردا ميتلاند انطلق من خلفها:

«ماذا بك يا ليجيا ؟ إذا داخله هيا بريك ادخلي.»

ثم دفعتها بغير رفق خلال الستائر التي كان يطيرها الهواء فوجدت نفسها تنظر إلى ظهر روبرت تشيز النحيل المعتدل. فرفعت قطعة خشبية في المدفأة

وكانها إشارة تثير انتباهه، استدرد روبرت برشاقة وكان يلبس كوفية من الصوف الكشمير عقدها بأنافة داخل سترته ذات المربعات الرمادية السوداء، ويمسك سيكارة من النوع المصري الذي تعرفت ليجيا الى رائحته. نظر إليها الى أعماق أعماقها المرتعبة. والتوت شفاته في ابتسامة ثم حوّل نظره عنها وقال لجردا :

«انظري من جاء يزورك»

وأشار بيده الى السجادة حيث كان يجلس في وسطها بهدوء كلب الصيد الوسيم بانكر وهو ينظف نفسه كقط ذهبي كبير.

قال روبرت :

«لطخ نفسه بالوحل وهو يعبر المستنقعات ولأنه ليس مؤدباً بل يهتم بمظهره كثيراً فهو ينظف نفسه الآن. بانكر هيا أيها الأحمق المغرور تعال وسلّم على السيدة الجميلة. لقد رأيتها من قبل»

تراجعت ليجيا وابتعدت عن الكلب - صاح روبرت بحدّة:

«إنه لن يعضك ! يا إلهي إنه أطيب مخلوق في العالم»

كانت تريد أن تقول نعم إنني أعلم ولكن الكلمات لم تخرج من فمها. كل ما شعرت به هو احساسها غير المحتمل بأنها دخيلة وأنها لا يجب أن تكون في هذا المكان.

«بانكر . تعال هنا . إنك غير مطلوب هناك يا صديقي»

تردد بانكر ونظر مرة أخرى الى ليجيا بعينيه الواسعتين الحائرتين. ثم نبح بصوت خفيض كأنه يطلب منها أن ترد على محاولته التعرف عليها.

فقد روبرت صبره ونادى بانكر مرة أخرى :

«تعال هنا - تعال أيها المغفل ! لا تكن مزعجاً»

انزاح الدخان عن عيني روبرت فرأت ليجيا نظره الباردة وهو يتفحصها من رأسها الى قدمها.

«السيدة لا تحبك .»

نظر إليه الكلب باستغراب وكأنه يقول: «ما الذي تقوله. كل الناس تحبني». وعندما عبس روبرت استدرد الكلب وعاد مرة أخرى لتنظيف نفسه . عندما

لم يكن روبرت هنا ليشير كل مشاعر ليجيا ويحولها إلى صرخة ألم صامت واحتجاج، كانت تحب هذه الغرفة. هنا يلتقي الماضي والحاضر ليكونا مجموعة متناسقة من الألوان، كانت جذران البلوط والأرضيات فاتحة اللون والستائر والسجادة والأريكة والكراسي المنجدة بقماش مزخرف تبدو كقطع من المجوهرات المتناثرة في الغرفة. وكانت هناك خزانة صغيرة تنمشي مع لون البيانو الذي يزين آخر الغرفة. ولم يكن في الحجرة سوى صورتين إحداها صورة العذراء الرقيقة. أما الثانية فهي صورة وجه رسمة الفنان يوهان زوفاني لأحد أعضاء العائلة الذي مات منذ زمن طويل وكان أيضاً ممثلاً مثل روبرت. يلبس رداء من الحرير الأسود وجهه نحيل وغامض ويده السمراء الجميلة موضوعة بخفة على ظهر كرسي مخفور .

نظرت ليجيا الى هذه الصورة وراء رأس روبرت الاسود وفهمت لماذا كانت تعكس عليها شعوراً بعدم الراحة عندما كانت تجلس في هذه الغرفة. كان الوجه المرسوم الذي مات صاحبه منذ زمن طويل هو وجه روبرت . كانت العينان المرسومتان تنظران الى ليجيا بسخريّة واستخفاف وتتبعانها تماماً كما تفعل عينا روبرت . وفجأة شعرت ليجيا أنها لا تستطيع أن تتحمل هذه العيون لحظة أخرى. تحركت من وضعها الساكن وانفلتت لتخرج وهي تمرّ بجانبه. رفع يده اليسرى وأمسك بكتفها وأدارها إليه بعنف. كانت أصابعه تمسك بها بقسوة وهو يقول :

«أين تظنين أنك ذاهبة. لم تتبادل أي حديث أنا وأنت - إنني أريد أن أعرف كيف تسير أحوالك هنا»

لم تستطع الرد عليه. كانت لا تستطيع إلا الوقوف خرساء أمامه وهي تشعر بأصابعه الطويلة القوية تضغط بقسوة على عظام كتفها الرقيقة.

أخذ ينظر إلى وجهها كأنه يراجع انطباعاته السابقة عن ملامحها والتوت شفاته في ابتسامة عندما لاحظ خوفها منه:

«حسناً، كيف حالك الآن؟»

«بخير ... أشكرك»

«هل عرض أفري عليك الزواج أم أنه مازال يظن أنك ملك شخص آخر»

«أوه ! كيف يمكنك أن تقول ذلك ؟»

قالت بحدّة :

«كيف يمكنك أن تتكلم بهذا المقدّ عن شخص بهذه الأخلاق الكريمة كابن عمك.»

«من الجائز أنني لا أحب أن أراه مجدّوعاً.»

كانت تبدو عليه السخريّة وهو ينظر إليها :

«إنه ثريّ أيضاً ، الى جانب أنه شخص كريم الأخلاق.»

لثت ليجيا :

«ولكنني لا أريد تقوده !»

«ما الذي يجعلك تكرهني لهذه الدرجة حتى تقول كل ذلك ؟ إنني لا أخدع أفري
«انا لا أعرف كيف أخدع أحداً.»

«حقاً»

«لا أطلب منك أن تتساءل عن شيء. إنها الحقيقة والآن اتركني !»

حاولت أن تجذب نفسها من قبضته ولكنه أمسك بها بقوة لدرجة أنه ألمها.
عضت على شفتها ثم شعرت بيديه تخفّفان قبضتهما. قالت وهي تشعر بالهزيمة
والتعب :

«إنك قاس جداً - أليس كذلك ؟ لك وجهاً عديم الرحمة كرجال التفتيش الأسبان
ومثل ذلك الرجل في الصورة على الجدار؟»

«حقاً ؟»

أثار هذا التصريح استخفافه أكثر من غضبه. ولكن جرّدا التي كانت
تجلس بهدوء انزعجت وصاحت :

«يا لك من طفلة صفيقة - هل تعلمين جيداً مع من تتكلمين ؟»

«إنك تعلمين يا جرّدا انها لا تعلم - إنها مصابة بفقدان ذاكرة، أليس كذلك ؟»

لم ينظر الى جرّدا وهو يتكلم وبقيت عيناه مركّبتين على ليجيا ولكن
عند ذلك بدا على جرّدا الشعور بعدم الراحة.

«إن أفري يقول ذلك أيضاً يا روبرت ، ولاتنس أنه طيّب.»

ارتفع صوتها قليلاً :

«أوه أترك الفتاة وشأنها - إذا سمع أفري أنك كنت تضايقها سيستشيط غضباً
ويمنعك من الحضور الى المنزل - إنها لا تساوي كل هذه المتاعب بالتأكيد ؟»
«أنا لا يهمني على الإطلاق منزل أفري اللعين ولا يهمني حضوره هنا أو
عدمه.»

ردّ عليها ثم شعر بليجيا وهي ترتعش بجانيه فنظر إليها من أعلى قائلاً :

«إذن تجددين وجهي كوجه رجل من رجال التفتيش الأسبان. أهو كذلك يا ليجيا؟

حسنأ أمي كانت راقصة أسبانية من مدريد. ربما علمت بذلك أيضاً؟»

احمرّ وجهها أمام نظرتة العدائية المتسائلة. كانت فعلاً تعلم ذلك عن أمه فقد
أخبرها تاجر بالثورة التي حدثت عندما أحضر والد روبرت عروسته
الأسبانية الى المنزل في تشيز ، وكانت صارخة الجهاد ولكنها لم تنل إعجاب
أهل تشيز لأن ذوقهم وطباعهم كانت تختلف عن طباعها وذوقها ، ولم تكن
تلك الزيارة ولا الزيارات التي تلتها موفقة.

قالت ليجيا :

«نعم أنا أعلم ذلك عن والدتك.»

انتقلت عينها الى وجه روبرت ورأت ملامحه القاسية وكيف يستطيع أن
يجعل نظرتة تبدو جامدة وبلا معنى عندما ينظر أحد إليه مباشرة كأنه يضع
حاجزاً بين الناظر إليه وبين أفكاره ليبقى في عزله.

تساءلت بهدوء :

«هل أستطيع أن أذهب الآن ؟»

«بكل تأكيد.»

دفعها بعيداً عنه وانتقل الى جانب المدفأة فخرجت من الغرفة.

«إنك عدو مخيف أليس كذلك يا روبرت ؟»

قالت جرّدا ذلك وعيناها الزرقاوان تتفحصان الوجه الذي رسمه زوفاني.

تبع روبرت نظرتها قائلاً باستخفاف :

«من الجائز أنه الدم الأسباني الذي يجري في عروفي يا عزيزتي. وكما تعلمين إن
الدم الأسباني يجري في عائلة تشيز منذ فترة طويلة قبل أن يقع والذي في
حب فتاته الراقصة من مدريد. فهناك اثنان من عائلة تشيز كانا ضابطين في

بحرية دريك . أحدها أحضر عروساً أسبانية ضمن الغنائم التي أحضرها معه من غارة على قادش . وكانت جدة آدم تشيز ماركيزة أسبانية . قالها وهو يشير الى الصورة . ويبدو أن الانجذاب الى الأسبانيات استمر عبر السنين .

«ولكن أرجو ألا يكون قد استمر فيك يا روبرت .»

قالت جرداً ذلك وهي تمد يدها إليه بأصابعها ذات الطلاء الفرمزي . وانحنى

روبرت ناحيتها ثم جذبها من كرسيها إليه وتغرس في وجهها :

«إنك جميلة كالطلاء . أليس كذلك ؟ فتاة النتيجة ، فتاة غلبة الشيكولاته .»

ثم ضحك بسخريه عندما اقتربت منه . فقالت هامسة :

«أريد أن أنتزع عينيك !»

«كيف تجرؤ على أن تعاملني بقسوة . هذه المعاملة تخص المخلوقات الصغيرة

المضحكة مثل ليجيا .»

«هل عاملتك بقسوة ؟»

قال بيزامة ساخرة :

«حسناً أذاً في هذه الحالة لن تريدي عناقى أليس كذلك ؟»

«أها الشيطان الأسمر اللعين .»

قالت ذلك ويدها تلتفان حول عنقه .

«أنت تعلم جيداً أنني أريدك حتى لو كنت على المشنقة .»

بعد أن تركت ليجيا غرفة الاستقبال ذهبت على الفور الى غرفة نومها .

ولكن شعوراً غريباً بالقلق تملكها بمجرد أن أغلقت الباب .

بعد قليل سيدق جرس العشاء وستضطر إلى النزول . إنها تكره فكرة العشاء

وروبرت تشيز يجلس في مواجهتها يراقبها .

خرجت من غرفة نومها وهرعت إلى البهو . تخبطت أبواب غرفة الاستقبال وهي

تجفل لصوت رقعة حذائها على الأرض الخشبية . وبيدين مرتعشتين بعصبية

سحبت معطفاً للمطر من دولاب البهو وارتدت بدون تأنيق وبسرعة خرجت من

المنزل كشخص مطارد . كان ضباب الخريف يتحرك كالستائر الخفيفة بين أشجار

الصنوبر واكتست الأرض بالأوراق كالسجادة ، حيث أسرع ليجيا تسير عبر

الممر الذي يمتد بين أشجار الصنوبر . كان شهر سبتمبر (أيلول) يقترب وأصبحت

الأمسيات باردة . ورفعت ليجيا ياقة معطفها حول وجهها وهي لم تقرر بعد إلى أين ستذهب . فقط كانت متأكدة أنها يجب أن تترك تشيز .

كانت تنورة المعطف الطويل الفضفاض الذي ترتديه ترتطم برجليها وهي

تسير ، مما ذكرها بخروجها للنزهة مع آفري يوم الأحد . فقد كانت تلبس المعطف

نفسه . تأكدت بعد تلك النزهة أن تشيز وكل ما يتعلق به أشياء جديدة في

حياتها لم تقابلها أو تعتد عليها من قبل . كل أولئك الخدم والحشم والغرف

الجميلة والطعام الذي يقدم في أطباق من الفضة أو تلك الخيل التي تصطف في

الاسطبلات والسيارات... من أين جاءت ولماذا لم يسأل عنها أحد في مركز

بوليس برنثام ؟ توجه آفري مرات عدة خلال أسبوع ليستفسر إذا كان

أحدهم سأل عنها ولكن الجواب في كل مرة كان بالنفي وبأن من الجائز أن هذه

الشابة وحيدة في العالم وليس لها أحد يسأل عنها وأن على الدكتور تشيز أن

ينتظر بصبر حتى تعود الى نفسها وتذكر من هي ومن أين أتت .

وحيدة في العالم ؟ هل هذا هو الجواب ؟

تهددت ياله من خاطر باتس ألا يكون لها إنسان في العالم يسأل عنها أو يهتم

بها . ثم تذكرت والألم يحرق في نفسها مما قاله روبرت تشيز . هل طلب آفري

منك الزواج أم أنه مازال يظن أنك ملك لشخص آخر ؟

كانت السخريه في صوت روبرت تكشف بوضوح أنه لم يكن يعتقد أنها

ملك لشخص آخر . وبدأت تعتقد هي أيضاً أن عالمها كان خلواً من أي شخص

يمكن أن يعتبرها ملكاً له .

لم يكن هناك زوج ! وأياً كان نوع الخاتم الذي ترك علامته على أصبعها فهي

متأكدة أنه لم يكن خاتم زواج .

تهددت مرة أخرى . لكنها كانت تشعر بالتعب . إن حذاءها يؤلمها . استندت إلى

جذع شجرة صنوبر طويلة ووقفت تحك كعبها . إلى أين تذهب في هذه الأرض

العريضة ؟ إلى برنثام ؟ أجل لماذا لا تذهب إلى برنثام . هناك مستشفى وفي

المستشفى لن تشعر أنها دخيلة . لن يستطيع روبرت تشيز أن يحضر ويسخر

منها هناك بعينيه السوداوين ويتهمها بأنها تخدع آفري .

«آفري !»

التوى وجهها بالألم وفي لحظة ضغطت رأسها إلى جذع شجرة الصنوبر وانهمرت دموعها - كانت تبكي كطفل تحلى عنه أبواه. وكان جسمها يرتعش من البرد. كانت تبكي للظلام الذي حلّ بعقلها ولأنها كانت تخشى الفراغ الذي قد يكون وراء هذه السحابة من النسيان.

عندما انتهت أخيراً عاصفة البكاء أخذت تبحث في جيوب معطف المطر عن المنديل الذي كانت تحسسته في أحد الجيوب وهي تسير في ممر الصنوبر - وجدته منديلاً رجالياً كبيراً وعندما وضعت على أنفها شعرت بأن قلبها ينخلع. كانت به رائحة السكاثر المصرية ! شعرت أنها تريد أن تبكي حظها العاثر وأن تطلب من الله أن يكفّ عن تعذيبها. جففت وجهها بعنف بالمنديل ثم دفعته بسرعة في الجيب.

كانت تعلم أن جرّدا ارتدت هذا المعطف أحياناً. ولكن هل اقترضت جرّدا هذا المنديل من روبرت خلال إحدى زياراتها معها في الحديقة أوفي المستنقعات لتمسح احمر الشفاه عن فمها.

لمعت النجوم بشدة بمحذرة ليجيا أن الوقت يمر بينما هي مازالت واقفة تبكي بغياء وتتساءل إذا كان روبرت تشيز اعتاد عناق سكرتيرة أفري ...

تحرّكت مبتعدة عن أشجار الصنوبر ثم توقفت فجأة واتسعت عيناها المتورمتان من أثر البكاء عندما حمل الهواء لها صوت نباح كلب.

كان في الصوت نبرة غريبة كصوت استعطاف جرو صغير تائه ووحيد. استجاب قلب الفتاة التائه الوحيدة على الفور لهذا النداء. إنه بانكر - بانكر الذهبي بعينه الطيبتين. شيء ما في طريقة نباحه أنبأ ليجيا أنها يجب ألا تخشى مقابلة روبرت لأن الكلب وحيد وقد حدث له مكروه ما ! وقبل أن تفكر جيداً فيما تفعله انطلقت خارجة من بين أشجار الصنوبر وهي تنادي الكلب. بعد حوالي دقيقة استجاب الكلب لندائها وخرج يقفز من بين أشجار الصنوبر - جرى مباشرة إليها وهو ينبع بألم ودفع رأسه في معطفها.

« بانكر ماذا جرى ؟ »

مرت بيدها على جسمه. على ظهره وجوانبه ولكنه كان سلباً كما تهتأ لها في الظلام. لم يكن يعرج ولم يكن هناك أي بلل يشير إلى وجود جرح أو دم من أي

نوع. ومع ذلك كان يرتعش ويضغط جسمه عليها.

« بانكر يجب أن أأخذك إلى المنزل. »

أنساها خوفها على بانكر أنها كانت تنوي الذهاب إلى برنثام وإلى المستشفى هناك. أمسكت بطوقه وأخذت تحته على السير ناحية المنزل ولكنه رفض أن يتحرك وقد تشبث بالأرض.

« أرجوك يا بانكر. »

في النهاية لفت ذراعها حوله ورفعته عن الأرض - كان ثقيلاً وأسند رأسه إلى كتفها وهو يخرج أصواتاً تتم عن الألم.

كانت آلامه تحزن ليجيا وتزعجها. أخذت تكلمه كطفل متألم بينما بدأت تترنح وهي تحمله وتسير به في ممر الصنوبر. ثم ارتقت سلالم المنزل بصعوبة وأخيراً وجدت الجرس وجذبتّه. وانتظرت بفارغ الصبر حضور ديفيد ليفتح الباب لأن وزن بانكر كان يزداد ثقلاً في ذراعها.

« حالا يا عزيزي سنرى ما يؤلك. »

أخذ بانكر يلحق خديها كأنه يفهم كلماتها وفي اللحظة نفسها انفتح الباب وأخذ رئيس الخدم يبخلق في الصورة الغريبة التي أمامه.

قالت بأنفاس متقطعة :

« إذهب وأحضّر السيد تشيز يا ديفيد - إذهب بسرعة لأن بانكر قد وقع له حادث. »

« أي حادث يا أنسة ؟ »

سقط قناع ديفيد الكتيب قليلاً وبدأ عليه شيء من الاهتمام وهو يراقب ليجيا وهي تحمل الكلب إلى داخل البهو.

« لا أعرف بالضبط ماذا حدث له ولكن أسرع وأحضّر السيد تشيز. »

« العائلة تتعشى يا أنسة. »

« أوه ! بحق الساء ! »

نسيبت ليجيا تماماً خوفها السابق من رئيس الخدم ونظرت إليه بغضب:

« السيد تشيز يجب أن يعلم ما حدث على الفور - الحيوان يتألم بشدة ألا تستطيع أن ترى ذلك ؟ »

وضعت ليجيا بانكر على أحد الكراسي التي كانت في الصالة ووضعت يدها تحت رقبته ورفعت رأسه الجميل إليها ولكنها صاحت باحتجاج وشحب وجهها من الفرع - فقد كانت هناك شوكة سمكة طوها حوالى بوصة تخرج من عينه اليسرى.

سمعت أقداما سريعة تحتاز البهو وتأتى من خلفها فاستدارت لتواجه روبرت وقد سقط شعرها على عينيها الفرعتين الواسعتين ولوثت بقع الدم من عين بانكر المصابة صدر معطفها.

قالت :

«دخلت شوكة في عين بانكر المسكين - وجدته بين أشجار الصنوبر»

إسودت عينا روبرت بشدة وفي لحظة كان يقف بجانبها وينحنى على بانكر - حرك بانكر ذيله بضغف مثير للشفقة يحى روبرت - راقبته ليجيا وهو يرفع رأس الكلب بيديه بركة متناهية ويفحص عينه المصابة وبعد لحظة سأل :

«هل أفري هنا؟»

نظرت ليجيا الى غرفة الطعام. شعرت بالارتياح لأن أفري كان قادما عبر البهو، كان وجهه الأشقر متجهها وسأل ليجيا «أين كنت؟»

«أنا... أشارت إلى الكلب، ذهبت لأنتزعه فوجدت بانكر»

قالت ذلك ثم أخذت ترتعش داخل معطفها وقد شعرت فجأة أنها مريضة.

«دخلت شوكة كبيرة في عينه، هل يمكن أن تستخرجها؟ إنها تؤلمه بشدة»

«تعالى»

أمسك بها أفري بعنف وأدارها ناحية غرفة الاستقبال قائلا:

«أذهبى واجلسي بجانب المدفأة واطلبي من جدتي أن تعطيك قليلا من الشراب»

«ولكنك ستستخرج الشوكة بسرعة أليس كذلك؟»

استدارت مرة أخرى لتتأمل إلى بانكر الذي ترك نفسه وهو يشعر بالأمن بين

يدي روبرت

«أظن يا صديقى الأحق أننا سنغير اسمك إلى نلسون قبل أن تنتهى هذه

العملية»

استدار لينظر الى أفري :

«الشوكة عميقة، هل تظن أنك تستطيع أن تتصرف أم تتصل بطبيب بيطري؟»

تركتهم ليجيا ونفذت أمر أفري ألياً بالذهاب الى غرفة الاستقبال حيث

جدته . وبينما هي تطرق باب الغرفة رأت جرذا تحيرى ناحية أفري

وروبرت . ثم عاودها الشعور بالغثيان ففتحت باب غرفة الاستقبال بصعوبة

ودخلت وهي تشعر أن الأرض تدور بها.

كانت السيدة تشيز تجلس على الأريكة وتتنظر بتركيز إلى صحيفة مفتوحة

أمامها. وكانت تلبس نظارة ذات إطار ذهبي وقد انزلت حتى منتصف أنفها

الشامخ وبجانها مذياع صغير يصدر موسيقى هادئة. رفعت عينيها وهي تسمع

الأبواب تفتح وتغلق ثم نظرت بحدة من خلف نظارتها وهي تفحص ليجيا ثم

سألت :

«ما الذي تفعلينه هنا بهذا المعطف القذر؟»

سقطت الصحيفة فجأة من يدها.

فكّنت ليجيا يديها المرتبكتين أزرار المعطف وجذبه عن أكتافها:

«لم... لم أنتبه...»

استدارت لتخرج المعطف خارج الغرفة.

قالت السيدة تشيز بحدة :

«بحق السماء يابنتي - ضعيه على كرسي»

«عليه دماء من عين بانكر - دخلت في عينه شوكة وأنا وجدته و... واحضرته

للمنزل»

«هل تتكلمين عن كلب روبرت؟»

وقبل أن تكمل كلامها انفتح الباب ودخل أفري بخطوات واسعة إلى

الغرفة وهو يزرر معطفه.

«هل أخبرتك ليجيا عن الكلب يا جدتي؟»

«نعم دخلت شوكة في عينه أليس كذلك؟»

هز أفري رأسه :

«سأذهب أنا و بوب الى برنشام لناخذه الى طبيب بيطري - كنت أستطيع أن أستخرج الشوكه بنفسى ولكن بوب مضطرب جداً ومتزعج من أجل الكلب وأنا أخشى أن يحدث خطأ ما فأشعر أنى مجرم».

ثم انتقلت نظرة أفري الى ليجيا وبيطه تفحصها وهي تقف وقد أطيقت يدها على معطف المطر المتسخ ثم سألتها:

«لماذا خرجت؟»

«شعرت بحاجة الى بعض الهواء...»

قالت ذلك وهي تتفادى نظرتة لئلا يستشف من عينيها أنها كانت تنوي ترك تشيز الى الأبد. لم تكن تريد أن تجرح أفري - أفري بالذات.

قال مؤنباً:

«اخترت وقتاً غير ملائم للتنزه وفاتك العشاء. سأطلب من ديفيد أن يحضره لك هنا، والآن يجب أن أذهب».

«على فكرة يا ليجيا : بوب طلب منى أن أشركك لاحضارك بانكر الى المنزل».

«هل سيتعافى؟»

هز أفري كتفيه:

«إنه ليس كلباً صغيراً في السن - عمره سبع سنوات ومثل هذا الحادث قد يؤذيه كثيراً - في كل حال سننتظر لنرى ما يحدث ، كفاك انزعاجاً».

أبتسم لها ثم نظر إلى جدته:

«لا نعرف كم من الوقت سبقى لدى الطبيب البيطري يا جدتي فلا تنتظرينا».

سألته:

«هل سيعود معك روبرت؟»

«لا أعرف حقاً - قد يفضل الذهاب الى منزله - هناك احتمال كبير أن يبقى بانكر

لدى الطبيب وكوخ بوب أقرب الى برنشام من هذا المنزل».

«كما لو كان الكلب طفلاً؟»

قالت ذلك ثم نظرت بحدة الى أفري من فوق نظارتها:

«هل جرذا هناك في البهو لتمسك يده؟»

ابتسم أفري:

«صعدت لتحضر معطفها لأنها ستذهب الى الطبيب البيطري معنا».

أغلق الباب وراءه وألقت السيدة تشيز الصحيفة فأحدثت صوتاً عالياً. وقالت:

«طبعاً ستذهب معهم ! انها فرصة للتودد لروبرت وأظهار العطف الجميل».

نظرت العينان السوداوان الى وجه ليجيا:

«إنها تريد ابنى - يا ليجيا - هل لاحظت؟»

هزت ليجيا رأسها بالانيجاب.

«وما رأيك؟»

«أظن أنها جميلة جداً».

«ولكن السيد تشيز كان منزعجاً جداً عليه»
«إنه يهتم كثيراً بهذا الكلب . الأشخاص الذين يعانون من الوحدة يميلون لأن
يحبوا من هذه الحيوانات أطفالاً أو أحباءً. أظن أنك تعجبين لقولي عن روبرت
إنه رجل وحيد»

فكرت ليجيا في ذلك ثم قالت :
«لا، إنني لا أعجب لذلك - أظن أننا جميعاً نشعر بالوحدة قليلاً - أليس كذلك؟»
«ليس الجميع يا طفلي - وليس الجميع بالطريقة نفسها. وبالتأكيد ليس بطريقة
روبرت - أخبريني ما الذي عرفته عن عائلة تشيز حتى الآن»
«علمت أنها عائلة عريقة جداً»

«نعم يا ليجيا عريقة جداً - وغير نقية في بعض الأحيان وهو شيء ينتقل في
الدم ويظهر من وقت لآخر في بعض الأحفاد»
تعلقت نظرتها بالصورة التي رسمها زوفاني والتي تشرف على غرفة
الاستقبال وتبعثها نظرة ليجيا أيضاً وقد قفز قلبها لأن تلك العينين السوداوين
اللامعتين لم تكونا بالتأكيد مرسومين - كانتا تسيطران عليها وتتحركان
بسخرية عميقة - أخيراً استطاعت أن تنتزع نظرتها بعيداً ثم قالت السيدة
تشيز:

«كان اسمه آدم تشيز وكان ممثلاً مثل روبرت و روبرت يشبهه. أليس
كذلك؟»

قالت ليجيا وهي تهمس :
«الشبه مخيف»

«لماذا استعملت هذه الكلمة؟»
«لا ... لا أعرف ...»

«ما الذي تريه يا ليجيا؟»

قالت السيدة تشيز ذلك وقد رأت نبرة مثيرة في صوتها الأمر

«إنك ترين شيئاً - ألا تستطيعين تعريفيه؟»

«كبرياء . اعتداد بالنفس . قسوة»

«كبرياء . اعتداد بالنفس . قسوة ووحدة الوثني القلقة . نعم إن كل هذه الصفات

٤ - خفافيش الليل

«جميلة جداً»

كررت ليجيا كلماتها كأنها تكلم نفسها.

تنهدت السيدة تشيز :

«جميلة؟ أه نعم جميلة»

ولأول مرة منذ معرفتها بالسيدة تشيز كانت عيناها تبدوان مرهقتين وهي
تبدو مثل شيخخة كهلة.

«ولكن روبرت له أعماق بعيدة لن تستطيع أن تصل إليها أو تفهمها. أعماق
تتد إلى الماضي أفهمها أنا لأنها موجودة فيّ على نحو ما - والآن أسكي لنفسك
مشروباً لأن وجهك ممتقع»

«لا. إنني على ما يرام - فقط يداي تشعران ببرد قارس»

جلست ليجيا على كرسي في مواجهة السيدة تشيز . وكانت تبدو صغيرة
السن جداً حادة زوايا الوجه لا تنسجم على الإطلاق مع جو هذه الغرفة المنسقة
إلى حد الكمال - وهي تنحني ناحية المدفأة وقد إليها يديها النحيلتين لتدفئتهما.

قالت السيدة تشيز :

«إذاً أحضرت بانكر إلى المنزل؟»

«لا بد أنه التقط هذه الشوكة من خلف الكراج. في أي حال، جس هولت طبيب
بيطري ماهر ويجب ألا أنزعج كثيراً على الكلب»

تميّز وجه آدم تشيز الذي مات منذ زمن طويل - ولكن عندما تتظرن إلى الصورة فإنك لا ترين آدم تشيز - أنا نفسي لا أراه - إنني أرى روبرت .
«أنت أيضا تريه ؟»

تفحصت عينا ليجيا البنفسجيتان الوجه المغضن العجوز وعندما هزت السيدة تشيز رأسها بالايجاب شعرت ليجيا بتوتر أعصابها يخف - أصبحت وكأنها فجأة تشترك مع السيدة تشيز في سر ما .

«نعم يا بنيتي إنني أرى روبرت - إنني أعرف روبرت ولذلك فأنا منزوعة جداً لهذه العلاقة التي تنمو بينه وبين جردا . أسأل نفسي إذا كان لديها الخيال الكافي والقلب الصادق الكبير الذي يجعلها تفهم الرجل - ذلك الرجل الذي لا يفهم نفسه جيداً . وإلا لماذا يمجده نفسه أحياناً مدفوعاً لتصرفات شيطانية وفي الوقت نفسه يشعر بالوحدة . إن الجواب الذي أرده على نفسي لا يطمئنتني يا ليجيا .»

سألته ليجيا :

«حتى لو كان الحب يجمع بينها يا سيدة تشيز ؟»

«نعم حتى في هذه الحالة - إنها تماماً كما تبدو - امرأة جميلة - لا تصلح إلا للحب والانجاب - ولا شيء آخر - روبرت يحتاج لأكثر من ذلك . إنه يحتاج لامرأة تفهمه كما هو ، والأستكون نهايته سيئة كما فعل بعض أفراد عائلة تشيز السابقين ومنهم والده .»

ثم ابتسمت السيدة تشيز وهي تقول لليجيا :

«لا يبدو عليك الانزعاج كثيراً لفكرة نهاية روبرت السيئة . هل تكرهينه إلى هذا الحد؟»

«أنا أعرفه بالكاد يا سيدة تشيز .»

«آه إنني أتساءل وفي أي حال سألقي ضواً على ذلك . كل العائلات القديمة كعائلتنا يحدث أن تنتج من وقت لآخر نسلاً مشابهاً لأجدادنا الأوائل غير المتحضرين - روبرت هو هذا الناج - كان يجب أن يرتدي ملابس العصور الوسطى ويسير في الشارع ومعه سكين يخفيها في كفه . ولكن لأنه ولد في القرن العشرين فهو مضطر لأن يتمشى مع قوانينه وعاداته وهو يحسن التصرف إلى حد

- كما أن المسرح يعطيه فرصة للترفيه عن نفسه قليلاً - ولكنه أحياناً يظهر طبيعته الوثنية تماماً ويبدو على حقيقته ، هذا هو روبرت - روبرت - الذي أحبه يا ليجيا .»

ارتفعت يدا السيدة تشيز ثم سقطتا على ركبتيها تعبيراً عن تسليمها بالواقع وخوفها العميق في الوقت نفسه .

«عشت لأرى والد روبرت يدمر حياته بنفسه وأرجو ألا أعيش لأرى المأساة تتكرر في روبرت .»

«ولكن يا سيدة تشيز ...»

سمعت ليجيا نفسها تقول :

«ضعاف الشخصية فقط يدمرون أنفسهم و روبرت ليس ضعيف الشخصية .»

«لن يأتي سقوط روبرت من ضعف في شخصيته ولكن لخضوعه الكامل لمشاعر الوحدة بداخله . وإذا حدث هذا سيستسلم تماماً لوثنيته . أظن أنه يعلم أن هذا قد يحدث له ، لذلك فهو يتجه بمشاعره الآن إلى جردا ويسأل نفسه إذا كانت هي كل ما يريد ويحتاج إليه . وإذا تم هذا الزواج أرجو من الله أن ينجح لماذا لم ينجح وبدأ في الانحدار فسيجرها معه .»

اقتشعت ليجيا من حتمية هذا المصير المشؤوم ، وراقبتها السيدة تشيز ثم قالت :

«فعلها أبوه من قبله ، كما فعلها آدم تشيز من سنوات عديدة مضت - إنها لعنة انصبت بعائلة تشيز . كما أنه من غرائب عائلة تشيز أن الدم نفسه الذي ينتج رجالاً مثل روبرت ينتج إلى جانبهم رجالاً مثل أفري - أنا لا أقول إنه قديس لأنه ليس كذلك . ولكنه لن يؤذيك يا طفتلي إذا تبين أن علامة الحاتم حول أصبعك لا تعني شيئاً . وإذا كنت محقة فيما أعتقد من أنه قد بدأ يهتم بك ... آه هذا هو ديفيد وقد أحضر عشاءك .»

تناولت ليجيا عشاءها بدون أن تشعر بطعمه فقد كانت تشعر بتعب شديد من كل أحداث ذلك المساء الغريبة وبعد أن شربت القهوة استأذنت من السيدة تشيز وصعدت إلى غرفة نومها .

وعندما وضعت رأسها على الوسادة الباردة المعطرة ابتسمت ابتسامة ضعيفة.
اعتقدت أنها ستترك تشيز ولكن يبدو أن تشيز لم ينته بعد منها ولأنها تعلم
أن تشيز لم يكن لديه مفتاح ماضيها المنسي قررت بخفية في قلبها أنه قد
يحمل مفتاح مستقبلها. أثقل النوم جفنيها فتركت نفسها له ولكنها سمعت بومة
خارج نافذتها تنقض على فأر غيط فاستسلمت الى النوم وهي تعتقد اعتقاداً
غريباً بأن البومة انقضت عليها هي ورفعته فجأة في الهواء واطبقت عليها
بمخالبها الطويلة التي لا فكاك منها.

لم يعد روبرت تشيز ذلك المساء. وفي الصباح أخبر أفري ليجيا أنه تم
إجراء عملية جراحية لبانكر ولكن لأن الطبيب كان لديه شك في إمكانية
الشفاء الكامل للعين أبقاه في برنشم . ابتسم أفري وهو يأكل وقال :
«بوب شخص مضحك يحب الاستقلال في بعض الأحيان - لقد استعار دراجة
قديمة من جس هولت ليذهب إلى برنشم كلما أراد رؤية المريض.»
ألقى أفري قطعة خبز إليها عبر المائدة وابتسم قائلاً :

«تستطيعين أن تأتني لاطعام حيوانات المختبر معي . هل تريدين ذلك ؟»
«طبعاً»

«هل تحبين الحيوانات يا ليجيا ؟»

وعندما أجابت بالإيجاب قال :

«هذا ما قلته لبوب ونحن في السيارة الى برنشم الليلة الماضية. إن هذا
الشخص المضحك يعتقد أنك كنت خائفة من بانكر - أخبريني يا ليجيا
هل رأيت بوب وقت الأصيل . وهل كان هذا سبب خروجك من المنزل وعدم
عودتك للعشاء.»

أخذت تحرك شوكتها وسكينتها بعصبية، قالت وهي تنظر لأفري
باستعفاف:

«نعم رأيته ... أنا لا أريد أن أتكلم في هذا الموضوع. إنه لا يستلطفني وعندما
نتقابل تنقضي الوقت في جدال . هذا كل ما في الأمر - والآن لنذهب ونرى
حيوانات المختبر»

تساءل أفري :

«فيم تتجادلان بوب وانت ؟»

«أشياء تافهة .»

«لن أقبل أن يكون وقحاً معك يا ليجيا .»

نظر إليها بعينيه الجذابتين الرماديتين الزرقاوين :

«إنه لا يهتم كثيراً بما يقوله للآخرين.»

«يا عزيزي أفري الأمر ليس هاماً، أرجو أن تصدقني.»

ابتسمت وكانت عيناها أكثر سحراً مما تتصور - وفي لحظة قام وذهب إليها

حول المائدة وأمسك بيدها وجذبها واقفة:

«هيا أيتها الطفلة الغريبة. تعالي لاطعام الحيوانات. وبعدها سأجعلك ترين

الجراثيم بالمجهر . هل يبدو ذلك مسلياً ؟»

«جداً .»

«أليس هناك شيء آخر تفضلين عمله ؟»

ضحك بنغمة حزينة بعض الشيء. وعندما أمسك بها وجذبها إليه لم تقاومه

فوضعت ذراعيه حولها بحذر حتى لا يخبثها.

«ليجيا - إنك تبدين كطائر صغير - طائر أسود صغير وأنا أريد أن أضعك في

الفقوس - لا يهمني من أنت ولا من أين أتيت.»

«قد أكون مجرمة ؟»

ابتسمت بلمسة من الحزن - كانت سترته التويد خشنة ودافئة الملمس وكانت

ذراعه مريحتين.

«هل تظن أنني كذلك يا أفري ؟»

«نعم أنت مائهااري ومن الأرجح أنك هنا لتسرق أسرار معلمي.»

«إذاً من الأفضل ألا تُريني تلك الجراثيم لأنني قد ألتقط صورتها.»

«سأعطيك صورتها - بل أي شيء آخر.»

أخذ يزيع شعرها الأسود عن جبهتها وفجأة حاول غناقتها.

«كلا . صاحت بهلع وأخذت تقاومه.»

«أرجوك لا تفعل.»

«لا تخافي يا عزيزتي لن أؤذيك.»

«أنا جادة يا أفري ! اتركني ! أنا لا ... اتركني!»

شحب وجهها. كالعاج - فمالك أفري نفسه فابتعد عنها بسرعة وهو يشعر بالحجل:

ذهبا الى الباب وهما متوتران ثم قالت ليجيا بصوت مبهور وقد ضايقتهما نظرة أفري التي تدلّ على لوم النفس :

«أنا التي يجب أن أتأسف - أنا غبية وناكرة للجميل .»

«ناكرة للجميل؟»

نظر إليها بطريقة مضحكة :

«أنا لم أطلب شكراً على شيء فعلته ولكنني نسيت أنك مصابة بفقدان الذاكرة ونسيت تلك العلامة حول أصبعك التي قد تعني أنك ملك رجل آخر.»

في الأسبوع التالي كان مصير عين بانكر يناقش في تشيز . لم يظهر روبرت وكانت الأنباء عن تقدم حالة الكلب تأتي عن طريق جردا التي كانت تتعایل للحصول على إجازات من العمل لدرجة أن أفري لجأ لليجيا لتساعده في كتابة بعض المذكرات وفي مراسلاته. كانت ليجيا مستعدة للمعاونة ولكن محاولتها أثبتت شيئاً واحداً مؤكداً هو أنها لم تكن في أي وقت تعمل كسكرتيرة كما أنها لا تصلح لأن تكون كذلك. كانت تسجل مذكرات أفري وخطاباته بصعوبة بالغة. وعندما حاولت الكتابة على الآلة الكاتبة كانت النتيجة غير مشجعة. كان أفري يضحك منها ولكنها عندما كانت تنفرد بنفسها كانت تحس بأن شعور القلق يتزايد لديها. لقد مرّ عليها أكثر من ثلاثة أسابيع في تشيز الآن وهي مازالت تجهل تماماً شخصيتها والمكان الذي أتت منه والعمل الذي كانت تقوم به.

لم يكن ممكناً أن يستمر هذا الوضع غير الطبيعي ! ومن ذلك الصباح عندما حاول أفري عناقها وهي لا تشعر بالاطمئنان إليه. لقد حاول الاقتراب منها وإشعارها بنفسه كرجل ولكن ذلك التصرف جعلها تشعر بوجود حاجز معنوي بينهما لم يكن موجوداً من قبل - أصبحت متحفظة معه رغماً عنها وكانت كلماته «ملك لرجل آخر» تؤرقها.

لذلك أسعدها جداً اقتراح أفري يوم السبت أن يذهبا بالسيارة إلى برنشم.

«أجل...أجل.»

قالتها بحماس وهزعت تحضر معطفاً من غرفة النوم - ثم نزلت وقد ارتدت سترة التويد التي لبستها عند حضورها الى تشيز . استاء أفري عندما رآها ترتدي تلك السترة المزرية وتفضلها على المعطف الثمين الذي اشتراه لها، ولكنه امتنع عن التعليق.

قال عندما ركبها السيارة :

«هل تريدان الذهاب إلى شاطئ البحر أم تذهب لزيارة عائلة بيرو؟»

«شاطئ البحر لو سمحت.»

الأمطار استمرت ساعتين بعد الظهر وغسلت الشارع الطويل المتعرج والمنحدر إلى برنشم ، كما غسلت الأشجار والحقول فبدا كل شيء نظيفاً. وكان الهواء معطراً برائحة الحضرة. استنشقت ليجيا الهواء المنعش وشعرت بالارتياح... ارتياح شخص كان يشعر بالاختناق.

وضع أفري السيارة في مكان الانتظار واتجه مع ليجيا إلى الميناء. كانت حركة البحر هذه الليلة هادئة ومعتمة تحت سماء بلا قمر. وقفت ليجيا بجانب السور وهي تستنشق روائح الميناء. شعر الاثنان بالهدوء والطمأنينة بالألفة القديمة غير المتحفظة تعود إليهما. كانا يتبادلان كلمات قليلة ولكن في أغلب الوقت كانا صامتين يسمعان خرير البحر عندما يحركه النسيم الرقيق من وقت لآخر.

انتفض الاثنان عندما سمعا صوتاً وراءهما يردد:

«كم أحب الموج. كم أهوى الرياح العاصفة. كل شيء صيغ من نسيج الطبيعة لم تُلخه أيادي البشر.»

«وأنا فعلاً أحب الطبيعة مع الشاعر شيلي هذه الليلة!»

أكمل الصوت بنبرة عميقة.

استدار أفري ناحية روبرت وهو يخرج غليونيه من فمه، أما ليجيا فالتفتت ببطء أكثر وهي تضع يدها على قلبها.

قال أفري :

«عندما تقول الشعر يا بوب ، أكاد أصدق أن لك قلباً.»

ضحك روبرت وسقط عليه شعاع ضوء من الميناء فبدت عيناه لامعتين

متحدثتين ومثبتتين على ليجيا وبدون مقدمات قال لها:
«أشكرك لمساعدة كليي يا ليجيا . قيل لي إنك حملته . لا بد أن ذلك كان
مجهوداً شاقاً لأنه في مثل حجمك تقريباً».

سألت ليجيا :

«هل هو أحسن الآن؟»

«أحسن بكثير - أشكرك . سأخذه الى المنزل غداً . لقد خاط جس هولت العين».

«أنا أسفة جداً لأنه فقد عينه».

لقد أنساها عطفها على الكلب تحفظها المعتاد مع هذا الرجل .

«إنه حيوان جميل جداً - أليس كذلك؟»

«نعم ولا يزال».

قال روبرت وهو يتحسس مكان الجرح بأنفه :

«كان يمكن أن تكون الحالة أسوأ . أخبرني جس أنه لوتلوث الجرح كنت فقدت
بانكر - إنني أكره أن أفقده - لأنه هدية من فريق الممثلين في إحدى
مسرحياتي».

ابتسم وقال :

«اسم بانكر اسم غريب بالنسبة الى كلب - ولكن الرواية كانت ناجحة لدرجة
أنني لم أستطع مقاومة تسمية الكلب باسمها».

«على كل حال كنت أقول إن جس -خاط العين وهي لا تبدو جميلة وبانكر
يحب أن يلعب مع الأطفال . وقد اختلط عليه الأمر واعتقد أنك طفلة ذلك اليوم
في تشيز».

«إننا جميعا معرضون للخطأ في حكمنا على الأشخاص».

قال أفري ذلك بنبرة ذات مغزى . وابتسم روبرت ابتسامة مازكة .
«إنك تبدو حكماً جداً هذه الليلة - أيها العجوز - أظن أنك تحتاج الى مشروب . أه
. إنها فكرة فلنعد جميعاً إلى صالة توبي . إنهم يحتفلون هناك بزواج ابن
صاحب المحل وعندما ذهبت أنا وجردا لتأخذ مشروباً دعونا وقد اضطرت
المسكينة ان تعزف لهم على البيانو . وخرجت أنا لأستنشق بعض الهواء . نعم
سنذهب جميعاً إلى هناك - هيا»

وقبل أن تفهم ليجيا قصده تماماً كان قد أمسك بيدها وهو يجذبها بعيداً عن
البحر في اتجاه الشارع .

كانت صالة توبي في ممر يواجه الميناء وعندما دفع روبرت باب
الصالون تدفقت موجة من الضجيج إلى ليجيا . كانت المجموعة ترقص
وتغني وتصيح . رأت جردا على الفور وهي تجلس أمام بيانو عتيق وتعزف -
وقد وضع أصحاب الحفل ورود قرنفل ذابلة في عروات ستراتهم .

قال روبرت وعيناه العقيقتان مثبتتان على الحفل وجردا :

«ياله من مشهد عائلي سعيد ! الحب على أنغام الموسيقى بين روائع الشراب
وأبخرة البصل المخلل الرومانسية»

سألت ليجيا بضيق :

«هل تسخر من كل شيء؟»

«من الجائز أن كل ما صادفني حتى الآن يجعلني كذلك».

«ومع ذلك كنت من لحظات تردد شعر شيلي وكنت تقول إنك تحب معه كل ما
هو من صنع الطبيعة».

«هل أفهم أن كل هذا من صنع الطبيعة؟»

أشار باحتقار إلى الشراب المنسكب في برك على الأرض . وإلى مجموعات
الصيادين الذين كانوا يضحكون بصوت عال . والذباب الذي كان يقف على
طبق من اللحم فوق البيانو حيث تعزف جردا بقوة . ثم نظر إليها يتحداها أن
تنافسه في هذه اللحظة .

حضر أفري وهو يشق طريقه بين الجمع ويحمل صينية يرفعها عالياً عليها
بعض المشروبات وغليونيه يخرج من قمه كجزء متمم له .

«يا إلهي ! أي زحام»

«صاح عندما وصل إليهم :

«لقد طلبت مشروباً ولكنني متأكد أنهم قدموا لي شيئاً آخر».

«لا يهم طالما أنه ليس ذلك المشروب البرتغالي العفن».

تناول روبرت كوبين من الأكواب الصغيرة من الصينية وناول أحدها الى
ليجيا . ارتعش الكوب في يدها . فقال بسخرية :

«ياها من يد صغيرة غير ثابتة - لا تسكبي الشراب الثمين بعد كل التعب الذي تجشمه أفري لاحضاره - إني أقول يا أفري إنه أحر قليلا هل هو شراب برتغالي؟»

«إني لا أستغرب ذلك.»

قال أفري ذلك وهو ينظر حوله بوجه عابس. ثم تساءل:
«هل هذا المكان مزدهم هكذا دائما؟»
«إنها حفلة عرس.»

قال روبرت ونغمة صوته تتناسب مع وجهه الساخر:
«إن صالة توبي وكرساكر عندما لا يكون بها حفل عرس - وجردا وأنا نزور هذا المكان كثيرا. إنها تحب الجلوس على تلك البراميل أمام البار.»
في هذه اللحظة أخذ أفري بمنظر جردا وهي تجلس أمام بيانو الحانة العتيق فكاد يسقط غليونه من فمه.
قال :

«يبدو أن سكرتيرتي تنطلق فعلا وهي معك يا بوب. عرفت طوال أربع سنوات وعملنا معاً عن قرب، ولكن لم أكن أتصور أنها تستطيع أن تجلس أمام بيانو عتيق في حانة، وتعزف عليه تلك الأغاني العاطفية التي يغنيها الناس في الأفراح.»

نظر روبرت وراءه إلى جردا ورأت ليجيا لمحة من السرور فمر بوجهه ثم قال :

«هل ستغني لي أغنية عاطفية في حفل زواجي أيها العجوز؟»

نظر أفري إليه كأنه لا يفهم ما يدور بخلده :

«إنك لست جادا يا بوب - أليس كذلك؟»

«ماذا تظن؟»

«كيف لي أن أعرف؟ جردا جميلة - جميلة بشكل صارخ وأتصور أنها تصلح زوجة ومضيفة ممتازة لمثل ناجح مثلك.»
أجاب روبرت معاتباً:

«هذا التصريح ينقصه الخيال العملي. هل أنا في نظرك لا شيء أكثر من ممثل؟»

أجاب أفري بعينين متساءلتين :
«ألست كذلك؟»

«باللمصيبة! هكذا قضي علي أن أكون.»

حدق روبرت لحظة أمامه بنظرة ثابتة. ثم هز نفسه ليتخلص من التفكير المكتئب. وقال:

«سأخذ مشروب جردا إليها. وبالمناسبة يا أفري. يكمن أنا مدين لك ثمتاً لهذه المشروبات؟»

«لا شيء. إنها على حسابي. أنا لم أستمع بجو المقاهي الشعبية منذ مدة طويلة.»
«هل تقضي وقتاً ممتعاً؟»

ظهر تعبير ساخر في عيني روبرت وهو ينظر إلى أفري بسترته التويد وقد وضع ذراعاه خلف ليجيا ليحميها من احتكاكات اثنين من الصيادين يضحكان بصوت عال ويقفان بجانبها. كان أفري، رغم كل رجولته وسنوات خبرته في شارع هارلي شخصاً رقيقاً بطبعه، وكان روبرت يعلم أنه يكره كل هذه الضجة والأبخرة المتصاعدة حوله في صالة توبي لذلك قال بشيء من الخشونة:

«لا تبقى أنتما الاثنان إذا كنتما تشعران بضيق. سأبلغ سلامكما لجردا.»

وعندما استدار روبرت وأخذ يشق طريقه بين الموجودين نظر أفري ليجيا وهو يبتسم قليلا ثم سأها:
«حسناً. هل نتصرف؟»

هزت رأسها بالإيجاب. وانتهيا من مشروبها. ولكن عندما وصلا إلى الباب وقف أفري في تردد وتقمص:

«أتساءل إذا كان بوب وجردا يحتاجان إلى نقل ...»

ثم نظر إلى البيانو وقد أتاح له طول قامته أن يرى الأشياء من فوق غابة الرؤوس المتداخلة. ثم سمعته ليجيا وهو يضحك قائلاً:

«هل بوب محل جردا على البيانو ليريحها - يا إلهي إن هذه الأغنية التي يعزفها قديمة.»

ارتفعت أصوات المدعوين في العرس حتى وصلت إلى حيث وقفت ليجيا

وأفري وأخذ الجميع يرددون الأغنية:
إذا شاء فليذهب وإن شاء فليغب
وإن شاء فليسيح وإن شاء فليغص
فما هو بي راض ولا أنا به راغب
سيلقي حبيباً في سواي يروقه
وألقي أنا حياً أعز وأفضل.

وبينا كانت أضواء برنسام تحبوا خلف السيارة وجد أفري نفسه يردد الأغنية
التي كان يعزفها روبرت ثم صاح فجأة:
«بوب شخص غريب الأطوار، ما الذي جعله يتذكر تلك الأغنية الساخرة
مباشرة بعد تلميح من احتمال زواجه».

ثم ضحك أفري بسخرية وأضاف:
«هذا لا يعني أنني أخذه مأخذ الجد. صحيح أن جرداً فتاة جميلة جداً ولكن لا
بد أن هناك كثيرات مثلها في حياة بوب الفنية - إنهن كالدمى بالنسبة إليه.
إنه لا يتزوج أيًا منهن».

تدخلت ليجيا لتقول في هدوء:
«من الجائز أنه يحب جرداً».

«بوب يحب؟ حاشا الله أن يفعل ذلك! إن اعتقادي الشخصي أنه ليس
بالشخص الذي يمكن أن يسعد امرأة حتى لو كان يحبها. إنك تخشينه أليس
كذلك يا عزيزتي؟»
«أخشاه؟»

نظرت نظرة عصبية جانبية سريعة إلى أفري الذي كان يمكن أن تميزه
بصعوبة في ضوء لوحة السيارة.
«لماذا أخشاه؟»

أجاب وهو يفكر:

«أظن أنني أعرف. أظن أن بوب يذكرك عن طريق عقلك الباطن بالشخص
الذي تهربين منه. أعتقد أن هذا حدث من البداية منذ أن تقابلنا لأول مرة في
تشيز».

توقفت السيارة ورأت ليجيا ادراج تشيز الحجرية وقد ترك الزمن
علاماته عليها. ورأت النوافذ المقسمة تومض من بين أوراق اللبلاب المتساقط
على الجدران ورأت الشرفة الواسعة وتذكرت اليوم الذي سخر فيه روبرت
منها بطريقة مهينة فسقطت على الشرفة وتبعثرت الاغراض مبعثراً ويساراً.
«إنك تعلمين أنني على حق - أليس كذلك يا ليجيا؟»

أمسك أفري يديها وكانت أصابعها تقطع الثلج.
«لماذا إذا شعرت أنه شخص مخيف في أول مرة قابلته؟ ولماذا قلت إن شيئاً ما فيه
يخيفك؟ إن الجواب واضح أليس كذلك؟»

كانت أشجار الصنوبر تتهاشم وطار خفاش كبير أمام أضواء السيارة القوية.
نعم لقد قالت إن روبرت يخيفها. كانت هذه كلماتها وكانت تعنيها. ولكن هذه
الكلمات نفسها - لسبب غير مفهوم - تحيرها الآن. أصبحت هذه الكلمات لا
تعني شيئاً بالنسبة إليها. وكل ما تتذكره هو نظرة روبرت الثائبة الخالية من
أي معنى هذه الليلة، عندما قال لأفري «هل أنا في نظرك لا شيء سوى
مثل». تحركت أصابعها بقلق بين أصابعه وهي تقول:

«أفري... أريد أن أعرف منك شيئاً. هل أخبرتي عن كيفية موت والد روبرت
والدته».

«كنت أظن أنك علمت يا ليجيا! ماتا في حادثة يمت في جزر البهاما».
لاحظت نبرة الاستغراب في صوته وكانت تعلم أنه يسأل نفسه عن العلاقة
التي يمكن أن توجد بين موت عمه وعمته من زمن بعيد والظروف الخاصة
بمقدانها الذاكرة. ومع ذلك مال للوراء في كرسيه وقد حجب الظلال وجهه وأخذ
يسرد عليها تلك المأساة العائلية القديمة:

«كان حادثاً من المفروض ألا يقع تحت أي ظرف، كانت هناك عاصفة عاتية
وأصر والد بوب على الخروج باليخت برغم رفض البحارة رفضاً باتاً بإخراج
اليخت وأكدوا له أن خروجه يعني الانتحار ولكنه لم يلق بالاً لكلامهم - وأخذ
اليخت وخرج به فاصطدم بصخرة في العاصفة وانقلب وغرق هو و كارملينا،
أما البحارة الأربعة الذين كانوا فوق اليخت فقد نجوا بأعجوبة - وقد أجمع
هؤلاء الرجال عند سؤا لهم في التحقيق أنه لم يمكن التفاهم مع ستيفن تشيز في

ذلك اليوم وأنه كان قد انغمس في مشاجرة من مشاجراته الكثيرة مع زوجته قبل أن يقرر الخروج باليخت ببضع ساعات.
توقف أفري لحظة وعندما استأنف قصته كانت نبرة الكآبة في صوته قد ازدادت عمقاً.

«لقد اتفق الرجال الأربعة على أنه رغم أن الزوجين كانا كثيري الشجار إلا أنهم لم يسمعوا كارملينا تهدد زوجها بتركه سوى في هذه المرة فقد قالت له :
«أنا لا أستطيع أن أعيش مع شيطان - إن الحياة معك جحيم وأنا أفضل الموت على هذه الحياة».

همست ليجيا :

«وهو؟ ماذا قال؟»

تحرك أفري في الظلام وشعرت ليجيا بأصابعه تضغط على أصابعها.
«ماذا قال ستيفن؟ طبقاً لقصة هؤلاء الأربعة التي لم يكن هناك أي سبب للشك فيها ، قال إنه يوافقها تماماً وإن من الأفضل أن تموت»
مرة أخرى طار خفاش ناحية أضواء السيارة كما لو كان فراشة كبيرة تغمس جناحيها في اللهب . وبينما كانت ليجيا تراقبه خطرت لها فكرة أن كارملينا تشيز ماتت كما تموت الفراشة فقد دمرها الشيء الذي لم تكن تستطيع مقاومته.
ثم قالت :

«وعلى ما أظن أن قصة هذا الحادث نشرت في الصحف».

«نعم ، كان ستيفن تشيز فتى مجتهد معروفاً كما كانت كارملينا راقصة مشهورة قبل زواجها. وكانت جميلة جداً . رأيتها مرات عدة هنا في تشيز . كانت سمراء عاطفية المظهر كزهرة غريبة. وأنا أذكر أنني حزنت عليها أياماً حزناً عندما علمت بموتها. فلم يكن معقولاً بالنسبة إلى عقل طفل في الثانية عشرة من عمره أن إنساناً في مثل هذه الحيوية والجمال يمكن أن يموت كلعبة انكسرت فجأة».

تهدد أفري ثم استرسل بصوت خفيض :

«أمل فقط أن تكون جرداً واعية لما هي مقدمة عليه لأنني أخشى أن يعيد التاريخ نفسه فهذا ما يحدث في عائلتنا بطريقة غريبة».

٥ - نداء المستنقعات

كان جو الحريف الساحر يغلف منزل تشيز ويشيع فيه حالة من الحذر. وكانت الشمس قد مالَت إلى المغيب وانطفأ آخر قبس من أشعتها الحمراء الذهبية وحلَّ الشفق كغلالة رمادية على المنزل.

كانت ليجيا تجلس على حائط الشرفة الممتدة بمحاذاة النهر، والظلال المنبجعة تزيد من وحدتها وهي ساكنة كأنها تجلس أمام رسام.

كان اليوم الأربعاء وفي الغد سيذهب أفري إلى بليموث لحضور مؤتمر طبي حيث سيقابل طبيب العظام الكندي المشهور ماكس ينتس الذي كان مدلهماً لمقابلته. وأسرت مسز تشيز ليجيا الليلة الماضية أنه طُلب من أفري أن يتكلم في المؤتمر عن أبحاثه الخاصة بالنسبة إلى علاج الروماتيزم.

فجأة سمعت ليجيا قرقرة حذاء نسائي على الشرفة أخرجتها من عزلتها. أدارت رأسها فرأت جرداً قادمة وفي يدها اليمنى سيكارة مشتعلة. وعندما انزلت من ليجيا كانت تنفض سيكارتها بحركة حادة غاضبة على أرض الشرفة.

«يا الهي! كم أنا مسرورة لأنني خرجت من تلك المكتبة! إنها حجرة كريمة للعمل»
«أليس لو سمع أفري نصيحتي وقام بطلاء الجدران بلون أبيض زاه بدلاً من ذلك اللون الداكن القديم، قد يستمتع إليك يا ليجيا».
قالت وهي تضحك قليلاً :

«أظن أن طلاء الحائط - بشكله الحالي - جميل ، لابد أن عمره مئات السنين»
قالت ليجيا :

«كل شيء في هذا المنزل قديم ، ضارب في القدم»
مرة أخرى نفضت جردا سيكارتها على الأرض وشعرت ليجيا بعيني جردا الزرقاوين المخضبتين تنظران إليها وتتفحصانها ثم قالت لها:
«ماذا أعددت للمستقبل ؟ وهل أدخلت أفري في حساباتك؟»

في لحظة تغير وجه ليجيا وضاع شعورها بالمتعة والتأمل في جمال أمسية الخريف ورقة أشجار الصنوبر ورشاقة المنزل القديم.

«كيف أخطط أو أفكر في المستقبل إذا كنت لا أعلم شيئاً عن الماضي؟»
«اذن قولي لي شيئاً آخر. هل كنت تنوين الهروب من تشيز ذلك المساء عندما جرح بانكر ؟»

«لماذا تظنين ذلك ؟»

قالت ليجيا وقد التفت عيناها بعيني جردا :
«لقد عدت .»

«نعم لقد عدت !»

سحبت جردا نفساً من سيكارتها ثم قالت :

«من ذاك الذي لم تطيقي البعد عنه. روبرت أم أفري ؟»
ابتسمت قليلاً وهي تسمع ليجيا تشفق وإضافت :

«هربت ثم عدت وأنت تحضرين الكلب . وكان منظره مريعاً عندما رأيته في الردهة. كما لو كنت قد طعنت في عينك.»

قالت ليجيا وهي تلهث:

«بالطبع كنت مضطربة. فما من أحد يحب أن يرى حيواناً يتألم.»

«وخاصة حيوان روبرت أليس كذلك ؟ على أية حال أريد أن أضع أمامك النقطة على الحروف. من الجائز أن روبرت شعر بالامتنان لك لأنك حملت ذلك الكلب الذهبي الكبير إلى المنزل. ولكن إياك أن تتصورى خطأ أن هذه اللحظة من الامتنان ستؤدي إلى أبعد من ذلك. إن طراز الفتيات التائهات في المستنقعات لا يمكن أن يعجبه !»

«ما بهي من شغف لارضائه.»

قالت ليجيا وهي تكاد تهوي عن الشرفة من فرط شعورها بالاهاة. ثم وقفت ملتصقة تماماً بالحائط وردت بعصبية:

«كيف تنفّون بذلك؟ أنت تعلمين كما أعلم أنا كيف يبغضني وقد سمعت كل ما قاله لي في غرفة الاستقبال.»

سألته جردا بعد تفكير عميق:

«هل لك أن تذكر لي ما قاله لك مساء السبت ؟»

ولما لم تجبها ليجيا اقتربت منها ورائحة عطرها تسبقها وقالت :

«استمعي إلي جيداً: ليتنا نتكلم صراحة معاً. استطعت الايقاع بأفري في شباكك وهو أكبر غثيمة في هذه المنطقة. ولكنني لن أتركك تستحوذين على روبرت في الوقت نفسه. إنني لأعجب ماذا بك من إغراء للرجال؟ ولكنني أحذرك من محاولة اصطيد روبرت . وإذا كنت تعتبرين كلامي هذا فظلاً لحذار والآن فسأتصرف معك بالطريقة نفسها.»

كان مظهرها في تلك اللحظة يؤكد أقوالها. وكان كرهها الشديد ليجيا يبدو واضحاً في عينيها الزرقاوين.

«هل تعتقدين أنني لم ألحظ هذب عينيك يرفاً لروبرت لأغرائه؟ لاحظت ذلك جيداً. وإذا كنت تعتقدين أن روبرت عندما يلتهم الطعام الذي تقدمينه له سيكتفي بالمغازلة الرقيقة والحديث المهدب مثل أفري فأنت مخطئة - إن روبرت من طراز آخر يختلف عن أفري وهو لا يقبل أن ترفض طلباته.»
ضحكت ضحكة ذات مغزى ثم رفعت يدها لتحسس شعرها الذهبي المعقوص بحركة مقصودة فانطلقت رائحة عطرها المميزة وظهر جمال جسمها المغربي.

«إنك طبعاً تفهمين أنني أتكلم عن خبرة. ولي حقوق عليه مقدمة على حقوقك ومن ثم فإن لدي ما يبرر استيائي من اهتمامك بروبرت»
«أنا... أنا لست مهتمة.»

أنكرت ليجيا وتراجعت بعيداً عن جردا وأثارت أقوالها وحركاتها السخرية.

«أنا أريد فقط أن أذكر من أنا وأن أعود من حيث أتيت.»

«المستنقعات ؟ لقد أتيت من المستنقعات ، أليس كذلك؟»

همس الريح لأشجار الصنوبر وشعرت ليجيا بالوحدة المؤلمة. كانت جردا تتحدث بسخريّة عن المستنقعات ولكن أليس من الجائز أن المستنقعات تحلّ سر شخصيتها المفقودة؟

ماذا لو كانت هذه المنحدرات الساكنة حيث يصيح الكروان فوق نبات الخلتجان تحمل سرّ ماضيها الضائع الذي ينتظر أن تبحث عنه؟

انطلق صوت الجرس النحاسي من داخل المنزل ، قالت جردا:

«كانت الطريقة التي حضرت بها إلى هنا غريبة كأنها مشهد من رواية - كان الهواء يصفر في تلك المستنقعات ، ثم ظهرت بهذائك المسرحي . والآن مضى عليك أكثر من شهر هنا ولم يبلغ عن اختفائك أحد وهو أمر غريب ، وهكذا بقيت تحت مسؤولية أفري كلفافة مفقودة.»

استمرت كلمات جردا تدور في رأس ليجيا. وتورفها أثناء تناول العشاء وتنبعها في غرفة الاستقبال. أما جردا فقد استعارت سيارة أفري الصغيرة.

قالت السيدة تشيز:

«لا بد أنها ذاهبة لرؤية روبرت.»

أغلق أفري أبواب غرفة الاستقبال ووقف مستنداً بظهره وابتمس وهو يهزّ رأسه موافقاً.

قالت السيدة تشيز بحدة :

«أنا لا أريد أن يتزوج روبرت هذه الفتاة، إنها جميلة ولكن أفقها محدود.»

ورد أفري :

«إنها لم تنس بنيت شقة عن ذهابها إلى مكتب سجل برنهام لتتزوج»

ثم ضحك وذهب إلى الأريكة وأدار الراديو فسبحت الغرفة في جوّ من

الموسيقى الراقصة. مدّ أفري يده إلى ليجيا على غير توقع:

«هل تحبّدين الرقص ؟ ألا تحبّين؟»

«لا، ما أظن أنني أجيد الرقص.»

تراجعت بعيداً عنه. واستمرت السيدة تشيز تقول وبها مشغول روبرت

«من المؤسف أن المسرحية التي كان يمثلها انتهت . هل تعرف يا أفري متى تبدأ البروفات للرواية الجديدة؟»

«يقول إنها ستبدأ بمجرد العثور على فتاة - تمثل ابنته - مقبولة من جمهور المسرح - وأظن أنه يقصد الجمهور النسائي - يجب أن يكون عمرها عشرين عاماً وفي الوقت نفسه تبدو كبنت الخامسة عشرة.»

قالت السيدة تشيز على الفور:

«طبعاً ، الفتى لم يتجاوز الرابعة والثلاثين كما أنه يبدو على المسرح أصغر سناً. إذا فهو يلعب دور الأب أخيراً ؟ هذا يجعلني أتساءل إذا كان اهتمامه المفاجيء بجردا نوعاً من الدافع النفسي لأن يصبح أباً حقيقياً. يجب أن يجعل الحقيقة تبدو واقعا محسوساً كما يقول.»

«ها جديتي، الالحاح لأن يصبح أباً عادة له أسباب بيولوجية. ولكن لا أظن أنه حتى الممثل الذي ينشد الكمال مثل روبرت ، يحشم نفسه مشقة الزواج ليتقن شعور الأبوة في التمثيل. وعندما أقول مشقة الزواج ، فأنا أتكلم من وجهة نظر روبرت فقط في الزواج، والتي لم يغيرها على وجه التأكيد رغم ما قاله ذلك المساء.»

سألت السيدة تشيز بحدة :

«ماذا قال ؟»

«ردّ كلمة العرس وهو ينظر لجردا .»

«أه !»

فكرت السيدة تشيز في ذلك لحظة ثم فجأة غيرت موضوع الحديث :

«وأنت هل فكرت في واجبك تجاه اسم تشيز - إنك تبلغ السادسة والثلاثين وإذا تركت الأمر لبضع سنوات أخرى فإنك ستعتاد حياة العزوبة لدرجة أنك لن تعلق أي امرأة بجانبك.»

وبينما كانت السيدة تشيز تعبر عن آرائها كانت نظرتها تنجس إلى ليجيا التي كانت تستند إلى باب الشرفة وتحرك قدمها كفتاة صغيرة يحلوها أن تقضي وقتاً في التأمّلات.

تبع أفري نظرة جدته واتجاه تفكيرها :

«هل توافقين؟»

«نعم، إنها أنثى، وصحتها جيدة رغم أنها تبدو كقطعة جائعة.»

دفعت السيدة العجوز نظارتها ذات الاطار الذهبي فوق أنفها واستمرت تقول:

«أنت رجل وسيم يا أفري ولن تجد صعوبة في الحصول على ما تريد.» ولكنه هز كتفيه ودفع قطعة خشب في المدفأة بقدمه:

«الوسامة ليست كل شيء يا جدتي.»

«ماذا تقول لي يا أفري وأنا سيدة طاعنة في السن. الرجل الوسيم يستطيع دائماً الحصول على ما يريد ولكن ليس بالضرورة أن يدفع ثمن ذلك خلقاً كريماً. إن لك أجداداً لم يكونوا على خلق يا ولدي - يمكنك أن تتفوق عليهم.»

«أم هل تقصدين أن اتفوق على بوب؟»

ابتسم قليلاً ثم اتجه ناحية أبواب الشرفة:

«إنك تفكرين بعمق يا ليجيا.»

ابتسمت له:

«رائحة الحديقة جميلة. أتمنى أن أضع هذا العطر في زجاجة وأسميه رائحة الحريف. إنه سيذكرني بتشيز طوال حياتي.»

اختفت ابتسامتها ثم أخذت تخطو على الشرفة كأنها تريد أن تهرب فجأة من خاطر يؤلمها، ثم وقفت بجانب الحائط وسار أفري وراءها ووقف معها بجوار الحائط. كانت الظلال والروائح الجميلة تغلفها كالعباءة، وسرت إليها أنغام الموسيقى من غرفة الاستقبال.

همس أفري:

«تشيز تبدو أكثر جمالا في الشتاء عندما يغطي الحديقة بساط من الثلج وتتجدد اغصان الشجر.»

قالت ليجيا بسرعة بدون أن تنتظر:

«لن أكون هنا عندما يأتي الشتاء.»

لمس أفري كتفها برفقة قائلا:

«ليس من الضروري أن تذهبي يا ليجيا. إننا نفترض أن لك زوجاً أو خطيباً

فالحاتم الذي حول أصبعك يشير إلى ذلك، ولكن الاحتمال الغالب أنه كان لك خطيب وأنك اختلفت معه. إن مشاجرة عاطفية قد تؤدي إلى رغبتك في نسيان كل شيء يرتبط به.»

«ليت الأمر بهذه البساطة! كم أود لو أنه كذلك.»

خيل إليها أن جردا تقف بجانبها مرة أخرى ممسوقة وجميلة بفستانها الجرسية الأزرق وهي تقول بصوتها الأجش من الغريب أن أحداً لم يبلغ بفقدك وشركتك كللغة مفقودة تحت مسؤولية أفري «...كانت جردا على حق! فعندما يتغيب أحد الناس عن منزله تشور دائماً ضجة كبيرة فيهرع الأقارب للشرطة ومعهم صور وأوصاف وكل أنواع المعلومات. ويسأل الأصدقاء والمستشفيات وأحياناً مقر العمل. ويتم العثور على الشخص المفقود في ساعات قليلة أو أيام. ولكن ليس من المعتاد أن يترك المفقود كما تركت هي لدى شخص غريب لو كان هناك من يهتم بها.

«ذلك الحذاء السخيف على سبيل المثال! كيف حصلت عليه! هل سرقته؟»

«كلمني عن ذلك!»

نهرها أفري:

«إنك لست سارقة ولكن إذا بدأت تفكرين بهذه الطريقة فسيحل بك المرض، وسأضطر أن أجعلك تلزمين الفراش وأفرض عليك نظاماً غذائياً من الكسترد والبيض المسلوق! هل ترغبين في ذلك؟»

رفع وجهها إليه فرأى اضطراب أهدابها السوداء وارتعاش شفيتها. أبقاها لحظة لم تركها قائلاً:

«لن أعتذر هذه المرة. ولك أن تنحي باللائمة على أزهار أبو حنجر والمنشور.»

لم تتم ليجيا جيداً تلك الليلة فقد جفاها النوم لساعات طويلة. وفي ساعة مبكرة جداً، سمعت أفري ينصرف بسيارته فنهضت بسرعة من فراشها لترى في أي مناخ سافر أفري إلى بليموث. كان الضباب الخفيف يغطي الحديقة وسمعت أصوات الطيور تصدح في الضباب. اقتشعرت ليجيا وضمت ذراعيها إلى صدرها.

في الليلة الغائقة قالت لها جردا لقد أنهيت من المستنقعات. وهذا الصباح

وصلت ليجيا إلى هذا القرار. ستذهب اليوم إلى المستنقعات لترى إذا كانت تستطيع أن تجد مفتاح السر لشخصيتها.

عندما انسلت خارجة من المنزل حوالي الساعة الثانية والنصف بعد ظهر ذلك اليوم، كان صوت الآلة الكاتبة التي تطيع عليها جردا في غرفة المكتسب يكتف السكون الذي يغشى باقي الغرف، وكان الجزء الخاص بالسيدة تشيز هادئاً تماماً لأنها كانت دائماً تستريح بعد الظهر. زررت ليجيا سترتها بأصابع باردة عصبية وانصرفت بسرعة عبر فناء تشيز.

لم تكن هذه أول مرة تخرج فيها إلى الحديقة منذ وصولها إلى منزل تشيز، ولكنها لم تتخط من قبل نهايتها التي تحدها الأشجار إلى حيث يظهر فجأة بحر من الأعشاب الطويلة والأشواك الكثيفة، ولا يسمع بعد الصوت المألوف لسقوط ثمار البندق من أشجارها، والأوراق الصفراء من أشجار البتولا الفضية الجميلة في حديقة تشيز.

عندما وصلت إلى منطقة عالية مسطحة تكسوها الحشائش وفي أعلاها شجرة صغيرة من أشجار العليق، تبدو ثمارها الحمراء زاهية تحت أشعة الشمس التي تسطع في نوبات متقطعة على المستنقعات، كورت نفسها على الحشائش تحت الشجرة وأسندت رأسها إلى جذعها الرمادي الناعم. لم تكن ليجيا تعلم أي نوع من أشجار العليق كانت هذه الشجرة، ولكنها فقط شعرت أنها شجرة طيبة في هذه البقعة المعشبة التي كانت تبدو وكجزيرة خاصة بها وسط أعشاب الخللج. ابتسمت ابتسامة فاتنة، أو، كم كانت حقا عندما كانت خائفة... المستنقعات في ضوء النهار مختلفة تماماً عما كانت تبدو تحت ضوء القمر الشاحب وهو يجر شعره كالساحرة في السماء المعتمة. أما الآن فإن السماء تبدو كخلفية ضبابية يغمد الكروان أجنحته فيها وهو يطير ويطلق صيحته المألوفة.

ارتجت أهداب ليجيا على خديها، وفي لحظة كانت قد أغرقت في النوم ولم تشعر عندما جاء أحد الطيور والتقط ثمرة حمراء من الشجرة.

وكما أغرقت في النوم فجأة فقد استيقظت فجأة، وهي تظن أنها نامت لحظات. ولكن أطرافها الباردة والألم في عنقها وكتفيها المتخشبتين أنبأها بغير ذلك. نظرت ليجيا حولها فوجدت السماء وأرض المستنقعات وقد أعتم لونها، فتأكدت أنها

نامت لبضع ساعات، وبينما هي تفكر في ذلك وتدعك رقبتها المتخشبة سمعت صوتاً يقول :

«نعم يجب أن تستغربي في النوم تحت هذه الشجرة من العليق. مناسب تماماً»
أدارت ليجيا رأسها بعنف فأتت على بعد أقدام منها روبرت تشيز واقفاً. لم يكن يلبس قبعة وكان شعره الأسود يطير في الهواء الذي كان قد اشتد بشكل ملحوظ أثناء نوم ليجيا - وكانت على فمه ابتسامة غريبة جداً وهو يقترب منها، ومع ذلك عندما مد إليها يده ليساعدها على القيام لم تتجنبها بل أمسكت بها.

«أوه - إن جسمي متخشب».

أمسك بها وبوجه هادئ. أخذ يدعك ساقها ليجري فيها الدم. ثم قال وسيكارته تطل من جانب فمه وتلقي بدوائر الدخان اللاذع في عينيها:
«ليس هناك ما يكفيك من الأسرة والأرائك في منزل تشيز»

نظرت إليه بعينين ناعستين ولم تناقشه في رغبته الجائحة أن يملكها بينما كانت يده تدعكان قدميها مما أعاد إليها حركتها الطبيعية.
سألته :

«لماذا ترى أنه من المناسب أن أنام تحت شجرة العليق؟»

أخذ يراقبها بعينيه الضاحكتين :

«شجرة العليق هذه هي شجرة المرأة الساحرة».

«أوه»

نظرت إليه بعينين نجلاوين متألمتين قليلا وشعرت بغربة الوضع فقالت بارتباك :

«أنت امرأة ساحرة يا سيد تشيز».

«أنت كذلك يا ليجيا؟»

«سحك بصوت خفيض :

«كنت أستطيع أن أقسم أنك شيء غير حقيقي - شخصية خيالية - تلقين السحر حولك، هل قدمك أحسن حالا الآن؟»

«أجل، أحسن حالا».

«هذا جميل والآن أخبريني لماذا جئت إلى المستنقعات بمفردك والساعة تقترب من الخامسة.»

«أوه . هذا غير معقول !»

نظر إلى ساعته وقال :

«الوقت بالضبط الخامسة إلا سبع عشرة دقيقة.»

«أذن فقد نمت أكثر من ساعتين .»

«نعم هنا في هذا الجو وأنا أظن أن السماء ستمطر حين رأيتها ملبدة بالسحاب ، كالفوات العسكرية التي تتجمع للحرب.»

نظرت إلى حيث أشار إلى السماء فرأت الرياح مثل قائد فرقة حربية ، يحشد السحب الرمادية الصغيرة في تشكيلات تاهياً للسير ، وكان حتماً أن تتجه إلى هذه البقعة . وتأكدت ليجيا أن السماء ستمطر كما قال روبرت .

«لم تجاوبني على أسئلتي عن سبب وجودك بمفردك في المستنقعات.»

«جئت لأعثر على نفسي . ظننت أنني قد أتذكر شيئاً هنا في المستنقعات.»

«وهل استطعت ؟»

والآن لم تكن عيناه ساخرتين بل كان بها تعبير من القلق . هنا تحت شجرة العليق التي تشتعل بثمراتها الحمراء ، والسحاب يلقي ظلاله عبر السماء ، كانت هذه الفتاة جاذبية محيرة تداهمه بعنف ، كما كانت تبدو صادقة وعزلاء مما حرك مشاعره رغماً عنه .

«تعالي إلى الكوخ . سأقدم لك الشاي وستسلمين على بانكر .»

كان يراقبها وهو يتكلم ويرى حيرة عينيها.

«كوخك ؟»

قالت بنبرة غريبة وكأنها لا تصدق ما سمعته :

«لا ... لا أظن ...»

«لا تظني شيئاً يا ليجيا .»

قاطعها وهو يبتسم :

«فقط اتبعي مشاعرك التلقائية ، سيكون هذا أفضل لك ، كما أنني أظن أنك ستعجبين بكوخي.»

مدّ يده فجأة ليسقط عليها المطر فرأى كلاهما نقطة مطر كبيرة .

«الآن يجب أن تعودني معي والا ستبتلي تماماً . لسنا بعيدين عن كوخي ولكن تشير أبعد كثيراً.»

سمعت المطر يسقط على أوراق شجرة العليق وشعرت برغبة في أن تتكشف دخيلته . قالت :

«أظن أنه يجب أن أعود معك .»

وعندما ضحك نظرت إليه فوجدت أن وجهه يشبه تماماً ذلك الوجه في صورته الموجودة في تشير وجه قاس وأسر وتنعكس منه مرارة داخلية لا يُعرف سببها . «طبعاً يجب أن تأتي لأنه لا فرار من المحتوم . أليس كذلك يا ليجيا ؟ إن كلا منا يشعر بحب استطلاع غامر بالنسبة للآخر ولن نستريح حتى نرضي فضولنا .»

أمسك يدها فجأة كانا يركضان معا تحت المطر وأصابعه تطبق على يدها . أخيراً وصلا للمدخل الحجري المسقوف لكوخ روبرت وهما يلهثان والمطر يساقط من وجهيهما . كان الكوخ وحيداً على حافة أيكة من أشجار البلوط القديمة وبعض أشجار الدردار الكثيفة وأشجار الأرز المتشابكة .

نفض روبرت المطر عن وجهه بكم سترته ودفع باب الكوخ ففتحه .

«هيا ادخلي . هل تسمعين بانكر ؟»

ثم رفع صوته مخافاً عليه بانكر :

«كل شيء على ما يرام أيها المغفل بانكر - كف عن النباح ولا تدّعي أنك تقوم بالحراسة ، من هنا يا ليجيا .»

فتحت باباً جانبياً في المدخل الصغير المعتم ، فانتشرت موجة من دفء خشب الدردار المشتعل في المدفأة ناحية ليجيا وجاء معها بانكر وهو سعيد بتعرفه عليها ومخالبه تضرب بقوة على كتفيها وهو يضحك لها ويلقح حبات المطر عن خديها .

أشعل روبرت مصباحين كرويين فأضاء النور الغرفة ولكنه لم يصل تماماً إلى كل العوارض الخشبية في سقف الغرفة .

نظرت ليجيا حولها وهي مندهشة لوجودها في هذا المكان . كانت تضع

ذراعها على رقبة بانكر وهي تحتسي بطريقة لا شعورية بفضوله الودّي كدفع يقبها مواجهة ما قد يكون باقياً من عداها وراء ابتسامة روبرت وهو يراقبها. أعجبتها الغرفة أينما إعجاب.

الكراسي السوداء طويلة من الخشب المجدول صممت للاسترخاء وعليها وسائد من القטיפ المصمّم الداكنة. وعلى بوفيه عتيق ، نحت أبوابه بدقة فبدت كالدانتيل الغامق ، وضعت دوارق تضيء وتلمع. وكانت الجدران البيضاء تزدان بعدد من القطع النحاسية الغريبة. وعندما أغلق روبرت الستائر سحرها شكل الستائر الحمراء الذهبية الدمقسية وهي تعكس لونها الأحمر الذهبي على الأواني النحاسية والقصديرية وأيضاً على شعر بانكر الجميل.

سألتها روبرت :

«ما رأيك؟»

«أعجبني كثيراً. لا شك أنك تنتمي إلى كل هذا الأحمر الذهبي والأسود ومضات الأحمر الباقوتي الداكن.»

«تقصدين «جو المسرح»»

ولكنها كانت تفكر أنّ كلّ هذه الألوان كانت تشكل خلفية صورة ما وكانت تميل إلى الاعتقاد بأنه يعرف ذلك أيضاً نعم إنه يعرفه ، إنها تستطيع أن تؤكد ذلك من التعبير الساخر على فمه وهو قادم نحوها ومن الطريقة المتعجرفة التي لا يمكن إنكارها حين قام بسحب سترة التويد عن كتفها النحيلتين.

«إنها في غاية اللال. هل قدماك مبتلتان.»

«لا ! لا أن قدمي على ما يرام !»

وبشيء من الفزع ثنت قدميها تحتها خوفاً من أن يقرر خلع حذاءها أيضاً.

«إنني أبعدو كأفري ، أليس كذلك؟»

ابتسم ابتسامة عريضة وهو يفرد السترة على مسند جلدي ويدفعه أمام النار.

«هل ذهب إلى بليموث اليوم؟»

هزت رأسها بالإنجاب وهي تعلم أن جرّدا لا بد أخبرته بذلك عندما كانا معاً في برنشام الليلة الفائتة. أخذت تربت على رقبة بانكر الناعمة الذهبية وعيناها تتأملان وهج النار الأحمر. لن تكون جرّدا سعيدة بحفلة الشاي الفجائية هذه

... ستغضب بشدة وتقول كلمات فظة ومنفرة.

«يجمل بي أن أحضر لك ذلك الشاي الذي وعدتك به . هل أنت جائعة؟»

«لماذا تسأل؟»

«أوه أرجوك أن تجوعي حتى أريك مهارتي في إعداد الطعام. سأعدّ عجة بيض ومعها عشب غراب فقد وجدت بعضاً منه في الأيكة خارج الكوخ صباح اليوم - هل تعجبك هذه القائمة؟»

«إنني أحب عشب الغراب.»

«إنّ له وهو يطبخ رائحة جميلة لا تضاهيها أي رائحة. أليس كذلك؟»

ابتسم ابتسامة صيبانية ثم اتجه ناحية الباب ، وعندما وصل إلى الباب استدار ونظر إليها وهي تجلس نحيلة صغيرة على البساط الذهبي الأسود وتمسك بانكر كأنه لعبة ذهبية كبيرة.

«ليجيا ، لماذا تظاهرت بعدم حب بانكر يوم كنّا في تشيز؟»

نظرت للكلب وهي محرّجة.

«أنا أحب بانكر ، أحبه جداً.»

«أه ، إنني أفهم تماماً.»

قال بصوت ضاحك :

«أما أنا فلا حبّ عندك لي.»

«كنت قاسياً جداً في ذلك اليوم.»

نظرت إليه نظرة ساخطة - أفسدها بانكر فقد أخذ في تلك اللحظة يلعب

بلسانه الخشن الكبير.

أنبه روبرت :

«كلّف عن ذلك يا بانكر ! أبق لسانك لنفسك.»

«لا تنهره ، إن لسانه لا يؤلني.»

قبلت ليجيا رقبة الكلب لتطيب خاطره.

«لساني فقط هو الذي يستطيع ذلك ، أليس كذلك يا ليجيا ؟»

وجهت نظرها إليه بحدة فرأت على وجهه تلك الابتسامة التي كانت على فمه في المستنقعات عندما جذبها من الحشائش . تلك الابتسامة الغريبة المبهمة

المرتقة.

خرج وأغلق الباب ، فغمرها مرة أخرى اعتقاد غريب بأن هناك دافعاً وراء هذه الدعوة الى الشاي . شعرت بالانزعاج وقامت على ركبتيها كأنها تنوي الهروب على الفور من الكوخ . ولكن بانكر أخذ يثن ويرفع رأسه نحوها كأنه شعر بانزعاجها.

«أوه يا بانكر . ماذا أفعل الآن؟»

ظننت أن المستنقعات تنادي بي ولكن هل كانت المستنقعات حقاً هي التي تنادي بي؟

٦ - المطر ليس ابرد من صوته

بعد الساعات التي قضتها ليجيا في مستنقعات ديفون شعرت بالجوع بمجرد أن شمت رائحة عشب الغراب المشوي الآتية من المطبخ . وتناولت هي وروبرت طعامهما على مائدة مطوية أخرجها من دولاب تحت السلم الحلزوني الضيق.

كانت العجة خفيفة ولذيذة، وعندما سألت ليجيا روبرت كيف تعلم الطهي هز كتفيه وقال إن أغلب العازبين يجمعون هذه المعلومات ، كما تجمع السيدات التحف الغريبة الصغيرة . ثم ابتسم ابتسامة رقيقة والتفت حول المائدة وسكب بعض الشراب في كوب بجانب طبقها وقال :

«يجب أن أكون مضيئاً كريماً ، ولا أريد أن يساء فهم دوافعي .»

رفعت نظرها إلى وجهه الأسمر الغامق وهو يرتدي فائلة من الصوف سوداء عالية الرقبة . وتذكرت ما قاله أفري أنه يذكرها بطريقة لا شعورية بالشخص أو الموقف الذي أرادت الفرار منه.

تحركت عينها البنفسجيتان بسرعة متجولة على وجهه الأسمر ، ورغم أنها لم تشعر بانفراجة ضوٍ مفاجئة تبعد العتمة التي دخلت فيها منذ فقدت ذاكرتها ، إلا أنها شعرت فجأة بأنها متأكدة من صحة ما قاله أفري فمنذ لقائهما في أول مرة في تشيز- كما قال أفري - ربطت في عقلها الباطن بين روبرت وبين ما يحاول الفرار منه . وكان يخيفها لأنها كانت تعلم طوال الوقت أن شيئاً ما فيه قد

بهز ذاكرتها ويعيدها من المكان المسدود الذي دخلت فيه أو الملجأ الذي لجأت إليه
لتهرب من ذكريات شيء ما تجهله.

قال روبرت :

«ظننت أن هناك دافعاً آخر وراء دعوتك للشاي . أليس كذلك ؟»

سألته وهي تمسح فمها بعصبية :

«أليس هذا صحيحاً ؟»

أجاب ببساطة :

«نعم ، كنت أشعر بالوحدة ..»

«أوه !»

صعد هذه الآهة ساخراً وهو يفتح عينيه بحدة :

«ألا تعتقدين أنني أحس دائماً بهذا الشعور الانساني ؟»

كان يتكلم بسخرية ولكن ليجيا رأت في عينيه نظرة خجل وتحققت من أن
هذا الاعتراف لا يصدر منه الا نادراً . شعوره بالوحدة كان بشكل عام سراً خاصاً
به . وحين أفضى اليها بهذا السر لمس وترأ حساساً في مشاعرها.

ابتسمت وقالت :

«أنا أعتقد أنك تستطيع أن تكون لطيفاً مثل أفرى عندما ترغب في ذلك.»

قال وابتسامة ساخرة تداعب فمه :

«يا عزيزتي لا أظن أننا سنناقش لطفي فأنا لست لطيفاً.»

عاد إلى كرسيه وجلس عليه . نظرت اليه ليجيا وتناولت كوب الشراب
فأخذ يراقبها وهي تأخذ منه رشفة . وقد بدا أن مذاقه الجاف اللاذع لم يعجبها.
ولاحظ نحول ذراعيها وكيف كان جلدها يعكس لون عينيها الأرجواني الشاحب.

«أيتها الطفلة الغريبة ! كنت قاسياً عليك في مناسبات عدة ، لماذا لم ترفض
دعوتي وتبتعدي عني عندما دعوتك للشاي هنا ؟»

توقفت بينا الشوكة في الهواء وفيها قطعة من عشب الغراب . ثم ابتسمت قليلا
وقالت :

«في الحقيقة لم أفكر في ذلك . ولكن هل كنت ستذهب لو كنت طلبت منك
ذلك ؟»

ألقى رأسه للوراء وضحك بصوت عال .

كان المطر يتساقط على نوافذ الكوخ ولكن الجو في الداخل كان دافئاً ومرحاً ،
وأخذ روبرت يتحدث في مختلف المواضيع . عن المسرح والأشخاص الذين
مثل معهم . عن باريس في الربيع وعن أشجار أبو فروة عندما تتفتح أزهارها...
وعن العائلة الأمريكية صاحبة الملايين التي أقام لديها فترة من الزمن ، والتي
كان لديها فرقة موسيقية دائمة تعزف الموسيقى للضيوف أثناء استحمامهم في
حمام السباحة الفاخر ، بينما يمر الخدم بصواني محملة بجميع أصناف المأكولات
الشهية مثل السمان المحشو بالكبد وبيض النورس المسلوق والكافيار.

«أعجبني هذا الجولدة أسبوع ، لكنني افضل بلاط الملكة اليزابت الأولى إلى حد
كبير ... كل تلك الأجسام المغطاة بالزيت ، وتلك الموسيقى المجنونة التي تصدح ،
بينما يضم الإنسان السمان المحشو بالكبد جعلتني أشعر بالاختناق.»

رشف شرايه ومد يده ليأخذ الجين . وبينما كانت ليجيا تراقبه أحست أن
يديه جميلتان بشكل غير عادي بالنسبة إلى رجل .

«هل تريدان بعض الجين ؟»

فضلت ليجيا قطعة من فطيرة التفاح التي أخبرها أن السيدة التي تحضر
من برنشم لتنظيف منزله أهدتها له.

«إنها سيدة طيبة ولا تكف عن القلق عليّ لأنني أعيش هنا بمفردي.»

ضحك :

«أني لأعجب ماذا ستقول لو علمت أنني لا أعيش هنا بمفردي ؟»

ضحكت ليجيا وهي تلعق السكر من سبابتها وقد اعتادت على قفشاته.
وأدركت في هذه الساعة أنه يستطيع أن يكون ساحراً بالبساطة نفسها كما
يستطيع أن يكون قاسياً . ولأنها كانت شديدة الحساسية تأثرت بسحره كما سبق
أن تأثرت من قبل بقسوته.

مع مرور الوقت شعرت بالهدوء والاسترخاء بينما أخذت حدة مخاوفها تقل.
وبدأت تشعر بسحر المكان الذي زاده جمالا كل مافي الغرفة . فقد شرب بانكر

الشيء الخاص به بسرعة واستلقى بجسمه الذهبي أمام النار المتوهجة . وانتشرت الأضواء الخافتة المنعكسة من النحاس والأواني القصديرية ، وخلفها الحائط الأبيض والظلال المترقصة على عوارض السقف الخشبية السوداء . وكان هناك إلى جانب ذلك رغبة مشتركة بين ليجيا وروبرت في ألا تنتهي هذه اللحظة أبداً . خوف مشترك من أن شيئاً قد يحدث فيحطم سعادتهما المتدفقة في هذه اللحظة الساحرة التي وجداها معاً على غير موعد .

ولكن العالم يدور والساعة تدق وكلاهما يشعر بالأسف يرف في صوت روبرت وهو يقول :

«حسناً يا ليجيا - هل استمتعت بضيافتي وطعامي الذي أعدته بنفسى .»
ابتسمت له عبر المائدة وأشارت إلى طبقها الفارغ :

«كنت جائعة أكثر مما تصورت.»

«جو مستمتعنا مشهور بفتح الشهية - تعالى الى ديفون العظيمة يمتلئ جسمك كالزبد ! لهذا جئت أنا!»

«أوه ! أنت !»

نظرت بعينيها الينفسجيتين إلى جسمه النحيل .

«لن تكون أبداً في خير حال يحدوك الوردية كالتفاح وبكرشك البارز كما أن هذا سيكون صدمة لكل المعجبات بك.»

«أه المعجبات - آلاف المعجبات المتهافتات !»

ضحك وتغطى في بطة برشاقة القط .

«إن لدي صدمة لمن ، سألعب دور الأب في مسرحيتي المقبلة هنا إذا استطعنا أن نجد الفتاة المناسبة لتمثيل دور الساذجة . إنهن شياطين وهنّ إمّا سمينات كأطفال في الرابعة أو يكنّ في الثلاثين وجافات كالاردواز . ملعون أنا إذا كنت أقوم بدور أب لامرأة في الثلاثين تتظاهر بأنها في الخامسة عشرة!»

«إذا ستكون طفلة سمينّة بقم أحمر!»

ضحكت ليجيا وهي لا تتصوره كأب لطفلة سمينّة بقم أحمر .

«لن يكون هناك شيء على الإطلاق إذا لم نجد النوع المناسب . لدي عرض للذهاب الى نيويورك إذا فشلت المسرحية البريطانية . وفي الأغلب سأوافق

عليه .»

«ألم تمثل في فيلم سينمائي ؟»

«لا . فلتذهب السينما الى الشيطان . مثلت بعض الأعمال الصغيرة للتلفزيون . ولكنها سريعة وتنتهي فوراً . أما العمل لمدة ستة أو ثمانية أسابيع في ستوديو فهذا يؤدي بي الى الجنون.»

ابتسمت لنفاد صبره وأخذت تداعب بانكر ، عندما اقترب منها . لاحظت أن علامة الخاتم اختفت تماماً من أصبعها الثالث . وللحظة عابرة شعرت أنها تعرف السبب الذي دعاها لأن تلبس خاتماً في هذا الأصبع ، ولكن عندما حاولت أن تمسك بتلك الحقيقة وتبينها بشكل ملموس فوجئت بها تتلاشى وتحمى تماماً . نظرت الى روبرت وهي تشعر قليلاً بالدوار . ولأن موضوع الخاتم كان مرتبطاً في ذهنها بتشييز قالت :

«طعامك اللذيذ أشعرنى بالامتلاء للدرجة أنني لن أستطيع تناول لقمة في العشاء عندما أعود الى تشيز.»

«أه تشيز !»

نظر روبرت إلى الساعة ونظرت إليها ليجيا أيضاً ثم صاحت بانزعاج :
«سيكون العشاء بدأ عندما أصل الى هناك ! ماذا أفعل ! هل تظنّ أن أفري يكون قد عاد من بليموث الآن ؟»
«لا أظنّ ذلك .»

كان روبرت مستلقياً على كرسيه يرشف شرابه . وعلت شفثيه ابتسامة ساخرة وهو يقول :

«هل يساوره قلق عليك إذا ؟»

«نعم ... قليلاً !»

احمر وجهها لابتسامته الساخرة . وعلى الفور ذاب سحر الساعة الماضية بسرعة . كما يذوب آخر شعاع للنس غاربة الأفق . اقتصر جسمها حين أدركت أن مشاعر العداء القديمة لا يمكن محوها في ساعة . إن مجرد ذكر اسم أفري أعاد الشعور بها وبدأت تؤلمها مرة أخرى كجروح ضاع تأثير المخدر منها .
«إنها طبيعته ... يجب أن تعلم ذلك.»

وأضافت متلثمة :

«إنه يشعر أنه مسؤول عني.»

جلس روبرت ساكناً وسمع في الغرفة صوت قطعة خشب في المدفأة تتكسر وينطلق منها الشرر. وتحرك بانكر ورفع رأسه عن يده. كان نائماً بجانب قدم ليجيا اليمنى ولكنه قام وطاف حول المائدة ووضع رأسه على ركة روبرت. ريت روبرت عليه بدون تفكير.

«إنك تميلين لأفري أليس كذلك يا ليجيا؟»

«نعم.»

قالت وهي تعبت بعصبية يكوب الشراب :

«إن له قلباً طيباً لدرجة أنه يستحيل على المرء أن يقاوم حبه أو يقاوم تمنياته بالنجاح له فيما يفعله. أقصد أنه ضحى بأشياء كثيرة، كعبادته في لندن وكثير من أصدقائه وهواياته. وإذا حقق نجاحاً في بحثه فإن ذلك يعني الكثير بالنسبة إليه. إنه يشعر برغبة جامحة في وضع حد لآلام الناس.»

كانت ليجيا تبدو في هذه اللحظة وكأنها هي أيضاً تشعر بأن وضع حد لآلام الناس هو أهم شيء في الحياة، لذلك لم يستطع حتى روبرت الساخر أن يسخر منها.

«إنك لا تحبين هذا الشراب. سأعد لك بعض القهوة.»

أخذ يبحث في دولا ب داخلي بجانب المدفأة عن بعض الفناجين والأطباق وعندما أحضرها إلى المائدة صاحت ليجيا بإعجاب وهي تمسك بأحد الفناجين : «كم هو جميل.»

كانت أصابعها تتخس النقش البارز الجميل الذي يحيط بالفنجان. قالت : «هذه الفناجين أجمل من أن تستعمل في الشرب.»

«إنه طقم أصيل من حجر الكاميوزي النقش البارز، كان ملك جدتي.»
أمسك هو أيضاً بأحد الفناجين الذي بدا صغيراً ورقيقاً بين أصابعه الطويلة. «لا أعرف لماذا أعطته لي إلا إذا كانت لديها الفكرة العاطفية بأنني سأفكر فيها كل مرة أستعمله.»

«لا لم يكن هذا هو السبب - إنها تعلم أن لديك حباً متأصلاً للأشياء الجميلة لقد

أخبرتني مرة بذلك.»

«حقاً؟»

رفع حاجبيه باندھاش وهو يسأل :

«هل تتكلمين أنت وجدتي كثيراً عني ؟ في كل حال لا أظن أنها أخبرتك بشيء لم تكوني قد حدثت نفسك به - إنك تعلمين أنني عنيد جداً أليس كذلك يا ليجيا؟»

قابلت عينيه الساخرتين ورغم أنها لم تستطع أن تنكر عناده وجدت نفسها تلمس له العذر لدرجة معينة. إنه يحمل لعنة قديمة مميزة أصابت عائلة تشيز. وقد قالت السيدة تشيز إنه يحارب هذه اللعنة ويخفيها كلها استطاع ذلك. لذلك كان على ليجيا أن تغفر له ذلك العيب الخفي كما كانت ستغفر له أي عيب ظاهر. شعرت في تلك اللحظة أنها تريد أن تلمس وجهه وتخفف عنه ذلك التعبير من القلق الساخر.

توتر الجو بينهما وشعرا بالغرفة تضيق. قفزت ليجيا بحدة عندما هب روبرت واقفاً وذهب إلى الباب وهو يقول : «سأصنع القهوة.»

زال التوتر من الغرفة بعد خروجه. ولم تسمع ليجيا صوت المطر والرياح. أصبحت لا تشعر بأي شيء خارج جدران هذا الكوخ الحجري ونسيت تشيز. وقد أخذت تتجول في الغرفة وتلمس أشياء روبرت بأطراف أصابعها. تمائيل صغيرة من الجاد الأخضر الشفاف وفتاة من الصيني تحمل الورود في حجرها وقطعة من الحفر على النحاس معلقة على الحائط والأبواب الطويلة المنحوتة كالدايتيل لليوفيه الطويل الجميل. بعد قليل جلست متكورة على إحدى الوسادات الجلدية وأخذت تقرأ إحدى رواياته.

عندما دخل روبرت ابتسم إذ رأى ليجيا تجلس متكورة على الوسادات الجلدية المستديرة كجنية على نبات الفطر وعيناها البنفسجيتان تجمعان الأضواء من النار وخذاها يعكسان ظلال رموشها الغامقة الطويلة.

«ما الذي تقرأينه ؟ هل هو نص لمسرحية «العاصفة هي ميراثي»

«نعم.»

لم تقل الا تلك الكلمة ولكن شيئاً ما في الطريقة التي قالتها بها جعلته ينظر إليها باستغراب . أخذ يسكب اللبن في الفناجين.
«هل يعجبك هذا العنوان ؟ إنه عنوان مثير ومتوهج. ولكن الشيء المدهش أن جمهور المسرح الانكليزي يحب لمسة من هذا التوهج»
لكنها لم تكن تسمع ما يقوله، كانت تمسك بنص المسرحية بشدة في يديها وكانت عينها مشبته على الاسم المطبوع تحت عنوان المسرحية وفجأة قالت :
«فتنون لين ، إنني أعرف هذا الاسم. إنه كاتب «الخاتم والحذاء»»
كان روبرت يسكب القهوة وعندما قالت ذلك رفع رأسه فانسكبت القهوة على المائدة.

تمت لي جيا :

«إنها رواية غريبة».

سألها روبرت :

«كيف لك أن تعرفي ذلك ؟»

«لم تجد إعجاباً من النقاد أبداً - أليس كذلك ؟»

كانت تكلم نفسها غير شاعرة بعيني روبرت اللتان ضاقتا وهو يراقبها قابضاً على يد إبريق القهوة.

استمرت لي جيا :

«إنه الفصل الثالث بالطبع... عندما تخرج الزوجة الثانية في منتصف الفصل ولا تظهر ثانية، لم أستطع أبداً أن أشعر بتلك اللحظة لأنني كنت أريد أن أقوم بعمل من أعمال التمرد على المسرح في ذلك الوقت بالذات، كنت أصرّ أنه يجب على أي امرأة ألا تفكر في شبح الزوجة السابقة إلا إذا كانت تكره زوجها . وطوال الشهر الذي كنا نمثل فيه مسرحية «الخاتم والحذاء» على مسرح توركاوي لم أستطع أن أحب ذلك الدور أو أشعر بوجود نفسي فيه. أنا...»

ثم خفت صوتها ووضعت ظهر يدها اليمنى على فمها بحركة غريبة مشمزة.

ثم سحبت يدها عن فمها واضافت :

«تشاجرت بعنف مع المدير لكن المرء لا يستطيع أن يخذل الناس هكذا. كنت قد وعدت لوي غراي أن أحل محلها حتى تتحسن والدتها وتستطيع أن تعود الى

الفرقة...»

«الفرقة ؟»

فاجأت كلمته لي جيا فرفعت رأسها عن النص لتجد عيني روبرت تملآن الغرفة. أصبحت الغرفة كلها عيني روبرت بل أصبح العالم كله عيني روبرت عندما أخذ يقترب منها ببطء ثم قال بصوت بارد جعل جسمها التحيل يحفل :

«استمري يا لي جيا ، دعينا نسمع الباقي ، هذا كله مثير جداً، تشاجرت مع المدير - فهاذا فعل ؟ هل طردك ؟»

«لا ؟»

انطلقت الكلمة منها وسقط النص من يديها المرتعشتين :

«لم يفعل شيئاً ... لا بد أنه فعل.»

أمسك روبرت بمعصمها وبحكم قوته جذبها وهي واقفة أمامه في شدة غضبه. كان غضبه وسمرته يلتقيان الظلال حولها. ثم لف ذراعيه حولها وقال :
«هل هذا ما فعله ، أيتها المخادعة الصغيرة - بعدما أغرقته في بحار عينيك الرائعتين ثم تركته يتخبط . هل هذا ما فعله ؟»

أظلم كل شيء ولم يكن هناك شيء سوى روبرت وصوت جدته وهي تخبرها «إنه وثني يا بنيتي والوثنيون ليس لهم أي قانون ، هذا هو سحرهم وفي الوقت نفسه خطرهم. هذه هي عظمتهم ولعنتهم. إنهم يحبون أن يعيشوا الحياة ولكنهم لا يعيشون بالموت. قليلاً ما يحبون وعندما يكرهون فبكل قطرة من دمهم»
«روبرت ، لا تكرهني»

صاحت لي جيا وقد استطاعت أن تهرب من ذراعيه وتركض بكل قوتها إلى الباب . قفز وراءها بدون وعي وهو يريد أن يعاقبها على الساعة الأخيرة . على البراءة في عينيها والطريقة التي قالت بها «أظن أنك تستطيع أن تكون لطيفاً مثل أفري...» لطيف مثل أفري الطيف وساذج ومخدوع بها، ولكن لا يمكن أن تكون أفري نفسه.

«اللعة»

صرخ وهو يتعثر ويسقط على الوسادة الجلدية حيث كانت تجلس لي جيا

وأضاف بانكر إلى الفوضى بأن قفز نابحاً بحماس كأنه يشترك في لعبة.
«إننا لا نلعب يا صديقي»

قام روبرت عن الأرض وضرب الوسادة الجلدية من طريقه بقدمه وعندما وصل إلى باب الكوخ الخارجي كانت ليجيا تجري بكل قوتها تحت المطر في الظلام. وكانت أوراق الشجر المكومة تنزلق تحت أقدامها. ولم تستطع تلك اللحظة التي كسبتها أن تنقذها في هذه الغابة من الأشجار المتشابكة التي كان يعرفها أفضل منها. تأمرت الأغصان الملتفة معه للأيقاع بها فتعلقت بملابسها وشعرها فلم تستطع التقدم. وعلى الفور برزت ذراع روبرت من الظلام والتفت حولها ورفعتهما بجسمها النحيل المبتل عن الأرض. حملها بسرعة وبخطوات واسعة قوية عائداً إلى الكوخ وضرب الباب بقدمه فأغلقة خلفها، وعندما دخلا إلى الدفء أوقفها على قدميها ثم قال باقتضاب:

«هيا اعترفي، ماذا أنت ومن؟»

أخذ يهرزها بيديه فيسقط المطر من شعرها ويجري كالدموع على خديها.

«إنك ممثلة صغيرة متجولة على ما أظن؟»

هزت رأسها بالإيجاب وهي تشعر أن صحتها من فقدان الذاكرة أشبه بكابوس وليست هي الراحة التي كانت تتمناها.

ممثلة متجولة - نعم - دائماً على سفر مع «إدوارد» والدها حتى مات بالالتهاب الرئوي في المستشفى في يارموث منذ ثمانية أشهر. نعم. تذكرت كل شيء الآن وكانت الحقيقة جافة ومأساوية في عينيها وهي ترفعها إلى وجه روبرت الأسمر الذي يفيض بالكراهية!

قال بازدياء:

«أظن أنك ستقولين أنك استعدت ذاكرتك بمعجزة؟ حسناً. لا تقولي لي ذلك لأنني لن أصدق أكاذيبك مرة أخرى. فلست ذلك المغفل الذي كنت تتكلمين معه منذ ساعة، ولن أكون كذلك معك أبداً.»

لم تستطع أن ترد عليه. ولم تستطع حتى أن تبكي لأن الساعة الساحرة الجميلة التي قضتها معه انتهت تماماً من حياتها وكأنها لم تحدث أبداً. الجمال لحظات عابرة كالزغب في الهواء «قال لها والدها مرة...» إنك تحاولين أن

تمسكي بالجمال وتحفظي به في يدك إلى الأبد ولكنه يبتعد وينتهي إلى لا شيء في اللحظة نفسها عندما تريته وتشعرين به.

كان في ذلك الوقت يتكلم عن والدتها «الصغيرة الجميلة» كما كان يسميها: ميف الأيرلندية التي آمنت به كممثل وكرجل وتحملت معه بكل شجاعة المتاعب وخيبة الأمل التي تحللت حياته الفنية.

فعندما كان إدوارد يلير شاباً بدا وكأن له مستقبلاً باهراً كممثل إذ كان ساحراً وله لحظات رائعة. ولكن الأبواب الحديدية لمدينة المسرح في لندن لا تفتح لكل يد تحاول ذلك. ورغم أن إدوارد حاول وهو يشتغل بالأمل إلا أنه بدا أن هناك عائقاً كان يقف دائماً في طريقه. كان يقول له أحد المديرين: «عند إلى مسرح الدرجة الثانية - أو أحصل لنفسك على وظيفة ساقى - إن الوجوه الوسيمة كثيرة». ثم يرفضه مدير آخر بسخرية لأنه كان مضطراً لأن يعول زوجته وابنته مما جعله يبدو من ممثلي الدرجة الثانية. ثم تجمعت كل هذه المتاعب المستمرة، بل وكأنها كان القدر متربصاً فتكومت المصائب معاً في كارثة واحدة كبيرة عندما ماتت زوجته المعنوية. وكان يقابل بالرفض أو بالحقن الصريح لوسامته... وهبط طموح إدوارد إلى الحضيض ورضخ مكرها لوضعه كممثل من الدرجة الثانية ولم يكتب لقدميه أن تقفا على مسارح لندن الكبرى. لقد ولد ممثلاً من الدرجة الثانية وسيموت بلا شك وهو مازال مقيداً بالسلاسل نفسها أما ليجيا فلا:

لقد قرر ذلك عندما بدأت تظهر مواهبها المسرحية. كانا سيعملان بجهد كممثلين من الدرجة الثانية طبعاً ويوفران بعض المال لتتمكن من التخصص سنتين في الأكاديمية الملكية. أما هو فلم تكن لديه تلك الفرصة. إن هذه الدراسة لتسفل الممثلين الناشئين وتهذبهم، كما أنها تؤثر على مديري المسارح الكبرى. إن إدوارد متأكد من ذلك.

نعم، كان يعتقد أن ليجيا ستؤثر على أحدهم ذات يوم. وستصبح نجمة. وسيعوضه ذلك فقد زوجته وقشله المتكرر والفقر الطاحن اللانهائي. لكن إدوارد لم يتقلب تماماً على الصدمة التي فاجأها بها القدر حين فقد زوجته وعندما خَرَّ صريع الالتهاب الرئوي في يارموث لم يقاوم المرض وترك نفسه يموت. مات وهو يحسك بيد ليجيا وينظر بهدوء مبتسماً وكأن شخصاً يقف

هناك وينتظره.

أما ليجيا التي كانت في الثامنة عشرة لم تعرف إلا مسارح الدرجة الثانية وبقيت فيها. كان الطريق أمامها مقفراً ومظلماً وروحها الشابة الحساسة تتورع على الحياة التي قتلت والدها بل وتزداد ثورتها حدة بمرور الزمن. الغرف المستأجرة التي لا تعوض أبداً عن البيت الحقيقي، والمسرحيات المبالغ فيها. والأمل الذي لم يكن أملاً حقيقياً في تحقيق حلم النجومية، حلم لا يتحقق إلا للقليلين...

عرفت ليجيا الآن وهي تقف في كوخ روبرت تشيز أنها حاولت نسيان عمرها المرتبط بالوحدة، لتقفز منه إلى وضع أفضل، حاولت أن تقفل الباب على عمرها هذا. وكانت لحظة تراكم كل هذا اليأس هي تلك الأمسية في توركاوي عندما هربت من المسرح في ذلك الحذاء اللامع الذي كان يناسب المسرحية وشفتاها تؤلمانها ألماً شديداً من أثر قتلات جورج داونهام...

داونهام! اقشعر بدنها وهي تتذكر ذلك الرجل الكبير الثقيل وهو يدخل إلى حجرة الملابس ذلك المساء بغطى ثقيلة كحيوان عثر على فريسته. لقد فعل ذلك مرتين من قبل لأن هناك فترة عشر دقائق بعد خروجها من المسرح تكون فيها بمفردها قبل أن يخرج بقية الممثلين. ولكن في المرات السابقة كان يتكلم معها محاولاً إقناعها بالخروج للعشاء معه. أو كان يناقشها في الطريقة التي كانت تبدو فيها كالدمية في آخر مشهد لها في مسرحية «الحاتم والحذاء». ولكن هذه المرة لم يطلب منها أن تخرج معه كما لم يجادها بخصوص المسرحية. أخبرها وهو يضحك أنها لا بد أن تكون أكثر دفئاً وقبل أن تستطيع الهروب منه أمسك بها وجذبها إليه وأطبق عليها كالمصيدة.

اقشعرت ليجيا عندما تذكرت أهوال تلك اللحظة العائدة إلى ذاكرتها لتعذيبها وكيف أطلق صيحة حيوانية عندما لجأت لاحدى تلك الحيل التي علمها إياها والدها خصيصاً لتتخلص من مثل تلك المواقف. سقط داونهام على الأرض وانطوى على نفسه من الألم. أما هي فقد انطلقت هاربة من المسرح.

لم تكن قد خلعت الحذاء الخاص بالمسرحية عندما حضر داونهام إلى غرفة الملابس، وكانت تلبسه عندما هربت. وركبت وهي في حالة من الفرع الشديد

أحد الأوتوبيسات من خارج المسرح.

نظرت مباشرة في عيني روبرت وقالت:

«اسمي بلير. وقد هربت من فرقة من الدرجة الثانية لكنني لم أكن أعلم أنني أهرب. كانت آخر ليلة للمسرحية وكنا سننتقل في اليوم التالي إلى بونفاوث. وأظن أنني كنت في عقلي الباطن أمارس الهرب من مدة طويلة وعلى الأرجح بعد وفاة والدي منذ ثمانية أشهر. ولكن في تلك الليلة في (توركاوي) بدأت أهرب حقيقة. وأنا أعلم الآن أنني هربت من المسرح وركبت أوتوبيساً وأعطيته السائق كل النقود التي كانت في جيبتي وقد نقلني إلى برنثام، ولا بد أنني أقيمت تذكراً الأوتوبيس بعد نزولي وبعد ذلك مشيت ومشيت.

دفعت يدها المرتعشة في شعرها المبتل وترنحت فجأة وشحب وجهها فيما عدا عينيها البنفسجيتين، كان جسمها عديم المقاومة عندما تلقاها روبرت ورفعها بلا رقة ووضعها على أحد الكراسي. ونظر إلى وجهها وكانت شفاهها بلا لون كشفتها ورققتين وكالسيف حادثين. وقال:

«كان المفروض أن أطردك الآن وأتخلص منك نهائياً. ولكن لأنني كسائر البشر لست ملاكاً فإنني لا أستطيع أن أدينك.»

همست:

«أنت لا تصدقني؟»

ضحك بكل سخريته:

«هل تريدني أن أصدق أي شخص يستطيع أن يخفي من عمله هكذا بدون أن يسأل عنه أحد؟ ماذا عن مديرك؟ إنه أول شخص يفترض أن يسأل إنها فرقة مسرحية ولا يمكن أن تلتقط أي ممثلات وتدريبهن وخاصة أن المسرحية تحتاج أسابيع عدة من التدريب.»

«إنك مخفيء!»

قالت وهي بمجدة:

«جورج داونهام لن يسأل عني، لقد تشاجرنا.»

دفعت يدها في شعرها المبتل المبعثر وكانت عيناها غامقتين ومضطربتين. «أعتقد أنه أخبر باقي الفرقة أنني تركت العمل، وسيقابل بالتصديق لأن كثيرات

منهن يعلمن أنني غير سعيدة بالعمل معه.

«وماذا عن غرفتك حيث تسكينين؟ لا بد أن صاحبة الغرفة وجدت الأمر غريباً عندما لم تعودني لتأخذني حاجياتك وتدفعي الإيجار.»
«أوه... حسناً...»

تلعثمت بشدة لأن ما ستقوله لن يصدقه أحد وخاصة هو.

«لم أكن أذهب إلى المنزل الذي تسكن فيه بقية الفرقة. لم أكن أريد أن أكون بجانب جورج داونهام لذلك استأجرت حجرة فوق مقهى بجانب ملاهي الروتاند. كان المكان... أو على الأقل كان الناس طبيين معي.»

ارتفع صوتها وهي تدافع عن نفسها كما يرتفع صوت الشاهد عندما يشعر أن المحلفين لا يتعاطفون معه. كادت تبتلع كلماتها الأخيرة ونطقها بسرعة كبيرة.
«أظن أن صاحب المنزل كان يتاجر في البضائع المسروقة. أنا متأكدة من ذلك لأن عربات النقل كانت تقف هناك في ساعة متأخرة من الليل. أظن أنه كان يتاجر في السكاكر والسكر وعلب اللحم. وفي هذه الحالة فإنه لن يحب أن يحشر البوليس أنفه في المكان. لذلك من غير المتوقع أن يبلغ بغيابي.»

سألتها روبرت :

«هل تتوقعين أن أصدق أنك كنت تقيمين في مثل هذا المكان بمفردك؟»

ابتسمت بشيء من الحجل ثم قالت :

«كنت بمفردتي منذ وفاة والدي. وكنت أفضل صاحب المقهى المريب هذا على مديرتنا. وعلى كل حال عندما تعمل ممثلاً متجولاً أغلب حياتك وتساfer من بلد إلى آخر طوال الوقت. فان سريراً نظيفاً وسقفاً غير مبتل أهم كثيراً من أمانة صاحب المنزل. علمني والذي ذلك برغم أنه لم يستطع أن يفعل الشيء نفسه دائماً. كان يعاني من التهاب في الغشاء البللوري. وفي العام الماضي جاءت أزمة حادة جداً وتوفي. كنا في يارموث في ذلك الوقت.»

كانت هناك لحظة طويلة من السكوت وارتفع صوت ساعة روبرت كأنها قلب يدق. وانهارت قطعتان من الخشب في المدفأة كطفلين متعبين سقطا نائمين في أحضان بعضهما البعض. قال روبرت أخيراً وهو يراقبها :

«إنك تجعلين القصة تبدو ممكنة التصديق.»

قالت بسخرية :

«ممكنة التصديق؟ الحقيقة يجب أن تكون ممكنة التصديق.»

اقتشعرت فوضع روبرت يده على فانتلتها فوجدتها مبتلة من المطر.

«يستحسن أن أعطيك ملابس أخرى قبل أن تضطريني لتمريرك من نوبة التهاب رئوي.»

نظر إليها فظنت أنه لابد يعتقد أنها ورثت ضعف الرئتين عن والدها. سألتها روبرت :

«هل أستطيع أن أتركك هنا بمفردك بينما أحضر لك بعض الملابس؟»

لم تجب وقد لفها البؤس وصوت المطر وهي تعلم جيداً أنه بمجرد أن يتركها بمفردا ستخرج في المطر. المطر ليس أبعد من صوته ولا الليل أعتم وأصعب قسوة من عينيه.

«إذن تفضلين الالتهاب الرئوي علي؟»

ضحك بلا مرج ثم جذبها عن الكرسي وحملها من غرفة الجلوس وصعد بها السلم الخلزي الضيق وهو يحني رأسه ليتفادى السقف المنخفض. وضعها على الأرض ثم سمعت احتكاك عود كيريت وأضاء مصباحاً فأخذ الضوء يتراقص في الغرفة ويلقي ظلاله على الجدران البيضاء والسرير الكبير.

«اخلعي هذه الملابس المبتلة.»

قالت روبرت وهو يلقي إليها بروب من وبر الجمل. ولكن يديها المتخشبتين لم تستطيعا التقاط الروب فسقط على الأرض. انحنت لتلتقطه وفجأة أغمتها الدموع وأخذت تبكي في عجز وقد أسندت رأسها إلى سرير روبرت.

«يا إلهي لماذا تبكين؟ إنك مبتلة تماماً.»

ذهب إليها وجذبها واقفة.

«إنك جامد... قاس.»

كانت دموعها تلمع في الضوء بينما أخذ يساعدها كطفل مهزوم.

«لا تنسي أن تضيفي أن لي وجهاً عديم الرحمة كوجه مفتش أسباني.»

قال ذلك وهو يلقي فانتلتها على السرير. تنهت إلى أنه يخلع عنها ملابسها بكل هدوء. حاولت أن تبتعد عنه ولكن تنورتها سقطت على الأرض ووقفت

أمامه نحيلة وبلا حماية.

شعرت بيديه على ذراعيها وفكرت في جورج داونهام وسرت قشعريرة في جسمها لم تستطع منعها.

شعر بها فرفع وجهها إليه ومرت بوجهه الابتسامة الساخرة التي يجعله يبدو مثل آدم تشيز.

«كفى عن الارتعاش فأنا لست مدير فرقتك السابق ! إنني لا أستمتع بشفاه ترتعد من الخوف . هل تظنين أنني مصنوع من حجر؟»

ثم نظر إليها في ضيق نظرة هزلية. والتقط الروب ووضعها بين يديها وقال :

«ارتدي هذا وانزلي وأنا سأجفف لك تنورتك وبلوزتك لأنك لا تستطعين العودة الى بيت تشيز بهذه الملابس المبتلة.»

أخذ ملابسها وانصرف وسأعته ينزل على السلم ثم نبح بانكر وهو يدخل حجرة الجلوس.

أخذ الهواء يحرك الستائر وبدأ لهب المصباح يتراقص مرة أخرى. وشعرت ليجيا بالبرودة تسري في كتفيها وذراعيها فارتدت الروب الذي كان لا يناسبها لكبر حجمه وجمعت ثناباه في كومة أمامها ووقفت تنظر في المرأة .

«أعود الى بيت تشيز؟»
فكرت :

«ولكن تشيز ليس بيتي - ليس لي بيت !»

٧ - لحظة الضوء والنار

بعد ساعة ، عندما توقف المطر. أخذ روبرت ليجيا الى تشيز عن طريق برنهام. سارا بسرعة لأن الهواء كان يهب من البحر.

شعرت ليجيا بالامتنان لروبرت من أجل الكاكاو الساخن والمعطف المبطن بالفرو الذي أعارها إياه قبل أن يتركها الكوخ. ورفعت ياقبتها على أذنيها.

قال روبرت فجأة :
«ماذا ستفعلين الآن؟»

«الشيء الوحيد الممكن هو أن أعود الى مسرح الدرجة الثانية.»

«أه ! هل هو فعلاً الشيء الوحيد الممكن ؟ من الجائز أن أفري لديه خطأ أخرى بالنسبة اليك . هل فكرت في ذلك ؟»

لم تستطع أن ترى وجهه في الظلام ولكنها تساءلت إذا كان يبتسم ابتسامته الساخرة.

«لا لم أفكر في ذلك !»
نظرت إليه باستياء :

«أنا لست إحدى الباحثات عن المال برغم أنك تبدو مصمماً على ذلك يا سيد تشيز.»

«سيد تشيز؟»
ردد بسخرية :

«دعوتني روبرت عندما ركضت الى الخارج في المطر.»
«أنا أسفة!»

ردت بسخرية شبيهة بسخريته ولكنها شعرت بحرارة ليس مصدرها سترة
الوبر. ضايقها وأخجلها أن يكون قد احتضنها حتى في لحظة غضب وشعرت
كأنها تجردت من ملابسها أمامه.

«لماذا أنت أسفة؟ هل لأنك هربت مني؟»

جعلتها طريقة كلامه الضاحكة ترد بقرف:

«لا! إنك تعرف جيداً ما أعني!»

«هل تقصدين أنك لستطيعين التطق باسمي إلا في الظروف القاسية جداً؟»
«نعم.»

«إذاً يجب علي أن اعانقك مرة أخرى لتتطقي باسمي؟»

لم ترد عليه فضحك وقال:

«لا تخافي. لن اعانقك مرة أخرى.»

توقف عن المسير لأن منزل تشيز ظهر أمامهما بأضوائه المتلألئة خلال الأشجار
وقال:

«سأتركك هنا»

«أشكرك لتوصيلي.»

«العفو يا ليجيا.»

تحرك عاتداً وهو ينادي بانكر - رفع يده محبباً ثم غاب في الظلام. بدأت
تسير صوب تشيز وهي تلف المعطف حولها لأن المطر بدأ يتساقط. وفكرت أن
تترك المعطف في منزل تشيز ليأخذه روبرت فيما بعد. كان المطر قد بدأ يتساقط
بغزارة ويحدث صوتاً عالياً على الشرفة، وانفتحت السماء المعتمة بسيوف البرق
المفاجيء وصرخ الرعد كحيوان مفترس يبحث عن فريسة.

فتح لها رئيس الخدم قدخلت ونظرت حولها. كان البهو يبدو ضخماً مخيفاً هذه
الليلة والأرضية دكناء والعيون التي تطل من صور أفراد العائلة أكثر حذراً
وأبواب الغرف المختلفة مغلقة بالنسبة إليها.

قال ديفيد:

«إنها عاصفة شديدة أتية من الغرب - لحسن الحظ أننا في منطقة مرتفعة. أما كل
ما تحت مستوى أراضي المستنقعات، فهو مهدد بالغرق عندما يبدأ البحر في
الغليان ويرتفع ويتخطى ذلك السور في برنهام. لقد حدث هذا من قبل.»
همست ليجيا بخوف:

«طوفان؟»

«نعم يا آنسة. كانت المراكب تنقل الطعام والمؤن الى الناس وكانت الوديان كلها
أشبه بالأنهار تطفو عليها قمم الأشجار والحيوانات الميتة. أما الشوارع فلم يكن
ممكناً أن تسير عليها أي عجلة!»

إشعرت ليجيا ونظرت إلى الباب الخارجي كأنها ترى وراءه شارعاً معتماً
يمتد الى البحر الهائج.

قال ديفيد بخبث:

«استطاع الدكتور أن يعود من بلايموث في الوقت المناسب. وصل منذ عشرين
دقيقة وهو موجود في غرفة الاستقبال مع السيدة تشيز.»

انصرف ديفيد إلى المطبخ. وسكن كل صوت في البهو عدا نبضات الساعة
وصوت المطر كالسياط في الخارج. شعرت ليجيا أنها تود أن تهرب الى حجرتها
قبل أن يراها أفري. فهناك الكثير يجب أن يقال وهي لا تستطيع أن تقوله
كله هذه الليلة. ليس الليلة!

صعدت السلالم وأثناء صعودها انفتح باب الردهة وسمعت صوت أقدام.
توقفت باندهاش، ثم صوت يقول:

«حسنأ أن الأوان لتعودي!»

توقفت ليجيا على السلالم واستدارت وقابلت عيني جردا الزرقاوين.
لفحصتها جردا ولاحظت تنورتها المتكرمشة ومعطفها المبطن المتدلي على
جسمها الصبياني وكان يغطي وجهها تقريباً ثم قالت:

«إنك تبدين في أسوأ حال. أين كنت بحق الشيطان؟ فاتك العشاء!»

«فاجأني المطر!»

أجابت ليجيا وهي تضغط قبضتها في جيوب المعطف ثم استدارت وهي
تقول:

«يجب أن أذهب لأغير ملابسي ، لا يهيم العشاء»

«عاد أفري من المؤتمر . هل تعلمين؟»

«نعم ، أخبرني ديفيد»

«ساور أفري القلق عليك»

ضحكت جردا ثم توقفت عن الضحك فجأة وهي تعيد النظر إلى ليجيا ثم قالت بصوت عدائي :

«هذا معطف رجل ، أظن أنه معطف روبرت ! إنه معطف روبرت ، أليس كذلك؟»

لم يكن لدى ليجيا القوة للخوض في معارك أخرى هذه الليلة - فهزت رأسها بدون كلام.

أنشبت جردا أظافرها الحمراء في ثورتها وهي تقول :

«أيتها القطة الصغيرة الزاحفة ، ذهبت إلى الكوخ وبقيت ساعات هناك ، أليس كذلك؟»

زجر الرعد وهدر مصاحباً تلك الاتهامات المتتالية . انكمشت ليجيا على سور السلم وهي تشعر بالتعب .

«شربنا الشاي معاً فقط ، ولم أبق ساعات ، لاداعي لأن تنظري إلي هكذا يا جردا ؟»

«إنني أود أن أقتلك ! كيف تجرؤين على التسلل إلى هناك ، كيف تجرؤين !» رنت كلماتها عالية وكرمية في الردهة واخترقت أبواب غرفة الاستقبال .

فانفتحت فجأة وبغف وخرج أفري ووقف هناك ، طويلاً وصارماً.

«ما الخير يا جردا ؟»

نظر إلى جردا محمداً ثم انتقلت نظره إلى أعلى وتسمرت على ليجيا . كانت تبدو وإطار السلم الخشبي الداكن خلفها والأضواء والظلال تسقط عليها كشيء أثري بلا جسم ، كروح استحضرها الليل والريح . سألتها أفري :

«أين كنت يا ليجيا ؟»

ردت جردا قائلة لأفري وعيناها تلتهبان بالغضب وهي تريد أن تمسك بليجيا :

«نعم سألتها هذا السؤال»

«ماذا تقولين يا جردا ؟»

«تلك القطة الصغيرة ذات الوجه الشحوب كانت مع روبرت ، ذهبت إلى كوخه وبقيت معه طوال بعد الظهر سألتها !»

امتلاً وجه أفري بتعبير من الاستمزاز ، استمزاز مما قالت جردا ومن الطريقة التي قالت بها . قال معترضاً :

«لا أظن أن هذا ممكن يا جردا»

«إنني أقول ذلك ...»

ولكنه تحول عنها وقال لليجيا :

«ألا تنزلين ؟»

لم يكن صوته غاضباً بل تعبيره . فالطريقة التي وقف بها أسفل السلم جعلته يبدو في صورة الأمر الناهي الذي لا يمكن عصيانه مما زاد من عصبية ليجيا .

وعندما تقدمت للنزول إطاعة لأمره ، انزلق حذاءها على السلالم المدهونة بالشمع فارتطمت بسور السلم . صرخت متألماً لأن جانب عينها اليسرى ارتطم بالسلم وفي لحظة ففر أفري درجات السلم وساعدها على القيام .

«أنا آسف يا ليجيا ...»

«ما من داع للأسف»

جذبت نفسها من بين يديه وهي خجلة.

«ولكن يا عزيزتي ، في وجهك كدمة»

أخذ يتفحص الكدمة الصغيرة في وجهها بلسة خفيفة ولكن بشعور واضح من التملك والألفة مما أخرجها أمام جردا .

أفلتت من أفري ونزلت تجري على السلم بدون أن تدري إلى أين ، ولكن عندما قابلتها ومضات البرق توقفت فجأة.

كانت السيدة تشيز تقف في مواجهتها في مدخل غرفة الاستقبال وعيناها السوداوان تتساءلان . فهمت ليجيا على الفور أن السيدة العجوز سمعت ما

قالت جردا عن روبرت والكوخ وسألتها السيدة تشيز :

«هل ستخرجين في العاصفة ؟»

وقفت ليجيا أمامها فشعرت السيدة تشيز كأن ليجيا حيوان مطارد
مجروح هرب حتى خارت قواه ويحتاج الى مكان يستريح فيه.
«تعالى إلى جانب النار - إنك تبدين متجمدة».
«نعم إنى أشعر بالبرودة».

ذهبت ليجيا إلى النار ووقفت بجانبها. توترت أعصابها وهي تشعر بجردا
وأفري يدخلان الغرفة - قالت جردا :
«ضبطها وهي تتسلل الى المنزل كلصة لعينة - من المؤكد أنها ذهبت الى الكوخ
وقد اختارت الوقت الذي لم تكن أنت في المنزل».

سأل أفري وهو يراقبها :
«حسنا يا ليجيا - هل ذهبت إلى الكوخ؟»
قالت وهي متعبة :
«نعم».

«وماذا حدث؟»
حس السؤال أنفاسها وبدا الغضب على وجه أفري لأول مرة فجعله يشبه
روبرت رغم لونه الفاتح.

«شربنا الشاي معاً - وكان طيباً لدرجة كبيرة».
«بوب طيب؟ لا أصدق ذلك! إنك لم تستطعي أبداً التفاهم معه. وحول أي
شيء تحدثنا؟»
«تكلمنا أغلب الوقت عن المسرح».

«يا إلهي! ما الذي تعلمينه عن المسرح؟»
كانت تلك هي الإشارة. دق قلبها بعنف في حلقها كما كان يحدث لها دائماً في
اللحظة الصغيرة السابقة لظهورها على المسرح.

«إنى أعرف الكثير يا أفري - على الأقل عن مسرح الدرجة الثانية، عادت
إلى ذاكرتي! وأنا أعلم الآن أنى كنت أعمل في مسارح الدرجة الثانية معظم
حياتي».

بدا كأنما الأصوات الصغيرة في الغرفة تنفجر بعد هذه القنبلة التي أطلقتها
ليجيا. أصدرت جردا صوتاً يدل على الاندهاش وقرع الحطب في المدفأة

وسمع صرير الأريكة عندما مالت السيدة تشيز وهي تنظر بحدة الى ليجيا
... وصاح أفري :
«أنت ... ممثلة؟»
«نعم».

قالتا وهي تعلم أن هذا التصريح لن يعجب أفري بسبب روبرت .
«آه ... إنى أرى».

نظر إليها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.
«إذاً من الأفضل أن نخبرينا بكل شيء، أليس كذلك؟»
كانت يداها قد بدأتا ترتعشان فدفعتهما في جيوب معطف روبرت. ووقفت
في وضع دفاعي على السجادة الأوبيسون وشعرها قد تهدل في غير نظام واسودت
الكدمة بجانب عينها. جاءت كلماتها متعثرة وهي تخبر هؤلاء الثلاثة بقصتها.

وكان من المحتم في نهاية قصتها أن يسألها أفري بذلك الصوت البارد
الغريب :
«إذاً تلك العلامة حول أصبعك جاءت من خاتم زواج في مسرحية؟»
«نعم يا أفري».

نظرت إلى حداثها وتذكرت ثاني ليلة قضتها في منزل تشيز عندما أمسك
أفري يدها بقوة وكان مهتماً جداً بتلك العلامة حول أصبعها.
استمر أفري قائلاً :

«يمكن أن نقول أن ذلك الشخص المدعو داوتهام فهم - أو أراد أن يفهم أنك
تركت الفرقة بسبب ذلك الحادث في غرفة الملابس ، ولذلك لم يبلغ البوليس
باختفائك؟»
«نعم ، كان من هذا النوع».

عصت شفتيها واصلت :
«لم يكن يريد أن يعرف باقي أفراد الفرقة ولم يرقني اهتمامه بي . أتصور أنه
عندما لم أذهب في اليوم التالي الى محطة السكة الحديد أخبر أعضاء الفرقة أنني
تركتها».

أخذ أفري يفكر فيما قالته ثم قال بعد لحظة :

«كان من المحتم أن تستعيدي ذاكرتك . لكنه من السخرية بمكان أن يحدث هذا في كوخ بوب . أقصد بعد الموقف الذي اتخذته منك ، إزاء فقدان ذاكرتك.»
راقبها أفري بنظرة عملية باردة كشفت عن شخصية جديدة لأفري بالنسبة إليها. إلا أنه أفري القديم نفسه ، الطبيب المعروف في شارع هارلي بمهارته وجديته.

ثم قال أفري بالصوت الحيادي نفسه :
«العواطف المضطربة قد تفجر حالات الدماغ المستيرية وتصل الخالة الى ذروتها عندما يتكرر الفعل الذي سبب هذا الاضطراب أخيرني يا ليجيا هل حاول بوب مغازلتك؟»

قالت السيد تشيز وهي تتحرك بقلق على الأريكة :
«ما هذا يا أفري ؟ لا أظن أن هناك أي داع للقيام بتحقيق - الشيء الأساسي هو أن الفتاة عادت لنفسها مرة أخرى ولا يهم ما الذي فجر ذلك ! ثم نظرت الى ليجيا وقالت :

«ماذا تتوین ان تفعل يا بنيتي ؟ هل ستعودين الى توركلي وتستأنفين عملك ؟»
«نعم يا سيدة تشيز سأعود.»

شعرت بالامتنان لما أظهرته السيدة تشيز من عطف عوضها قليلا عن عدم عطف أفري غير المتوقع وقد ساعدها ذلك أن تقول له :
«سأرحل في الصباح اذا لم يكن عندك مانع أن تستضيفني ليلة أخرى.»
«لا مانع أبداً من استضافتك . إنك تعلمين ذلك . وكل ما حدث هذه الليلة... لا يغير من الأمر شيئاً، إنك لست مضطرة للرحيل.»
«كل ما حدث هذه الليلة ؟»

كانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي سمعتها ورددها بطريقة متبلدة بينما كانت العاصفة تزار في الخارج .

«أظن أنك تقصد زيارتي لكوخ روبرت وما تظن أنه حدث هناك ؟»
أفلتت منها تنهيدة سريعة ساخطة ودفعت شعرها بعيدا عن عينيها بحركة ناضجة متعبة وفي الوقت نفسه طفولية حزينة.
«هل ستصدقني إذا قلت إنني وروبرت لم يغوأي منا الآخر ؟»

«ليجيا !»

«لا تنظر إلي هكذا ! أنا لست طفلة أنطق بكلمة تخرج عن حدود اللياقة - أنا أترجم فقط في كلمات ما يدور في ذهنك - هذا كل ما في الأمر.»
جرت الى باب غرفة الاستقبال وعندما تحرك كأنه يتبعها أمسكت جذته بذراعه .

«أترك الفتاة تذهب إذا كنت تحبها.»

تحسس أفري شعره الأشقر بقلق ، وفقدت عيناه النظرة الباردة ، لتكتسبها مسحة ارتباك وخيبة أمل وهو ينظر الى الباب الذي ذهبت منه ليجيا .
«الحب - ما هو الحب ؟»

أجابته جدته ببساطة :

«إنه الايمان بالشخص عندما يصعب الايمان به .»

«ولكن يا جدتي اسمعيني ! فقدت ذاكرتها لأن رجلا حاول أن يطارحها الغرام . ثم استعادت ذاكرتها في كوخ بوب . لماذا بحق السماء ذهبت إلى هناك رغم أن موقف روبرت منها طوال الوقت كان موقف عدا و شك ، كالكلب الذي ينتظر فرصته ليعضها؟»

قالت جدته بعد تفكير :

«هناك شيء اسمه الفضول ، بلغت الآن من العمر أزدله . هذا صحيح ، ولكني لم أنس تماما كيف تكون الفتيات - إنهن كالقطط يا أفري - مغرمات أن يحشن أنوفهن في شؤون الآخرين وخاصة إذا كانت شؤون الآخرين غامضة . وفيها كثير من الأسرار والأرجح أن ليجيا الصغيرة حشرت أنفها ففرصت ... إن روبرت لن يفعل أكثر من أن يقرص قطعة.»

نظرت السيدة تشيز نظرة جانبية إلى جردا وبومضة شقاوة في عينيها قالت :

«أظن أننا نستطيع أن نقول إن روبرت لا يمكن أن يغري الفتيات الصغيرات.»

حدقت جردا في السيدة العجوز فتأجج بين هاتين السيدتين ذلك العدا الذي ينشأ بين سيدتين تحبان الرجل نفسه لأسباب مختلفة.

سألت جردا بغضب :

«هل تلمحين بأني تركت روبرت يغريني؟»

نظرت السيدة تشيز إلى جردا بنظرة روبرت نفسها:

«يا فتاتي الصغيرة أنت التي تغرمين بالتلميح إلى ذلك رغم أنني لا أفهم لماذا ، لأنه في أيامنا كنا نحفظ بهذه الأمور لأنفسنا ولا نصرح بها لأحد.»

قالت جردا بغضب :

«لا أعرف متى لمحت بمثل هذا. يا إلهي - فقط لأنني أذهب إلى كوخه...»

لمعت عينا السيدة تشيز بانتصار كمن أحرز هدفاً :

«نعم فقط لذلك يا فتاتي ، لقد كنت سريعة في اتهام ليجيا بأنها امتهنت نفسها ، فقط لأنها ذهبت إلى كوخ روبرت . لماذا ؟ هل ظننت أنها أعجبت أكثر من تلك الناحية ؟»

«أوه لن أقف هنا لأسمع تلك الالهات ! هل تظنين يا سيدة تشيز أنك تستطيعين إهانة الناس كما تشائين .»

«أنا لست الوحيدة يا جردا ! فأننا اعتبرها إهانة أن أحد أحفادي ينحدر لمستوى التفرير بطفلة صغيرة. كنت أظن أنك تعرفينه قليلا - طالما تدعين أنك تحببته . إنه يستطيع أن يكون شريراً ولكنه ليس نذلاً - إنه ليس كذلك بأي حال .» فجأة بدا التعب على السيدة تشيز فجمعت طيات تنورتها السوداء وقالت :

«تناول عشاءك يا أفري - كان مشوارك طويلا .»

ثم انصرفت من الغرفة ببطء ووقار .

هدأت العاصفة قليلا وخفت ومضات البرق التي كانت تضيء غرفة نوم ليجيا - كما خف المطر الذي كان يصفع على النوافذ.

كانت ليجيا ترقد في سريرها، وهي تصغي إلى صوت المطر لكنها لم تستطع الاسترخاء، استنفدت طاقتها أحداث الساعات الأخيرة ذهنيًا وجسديًا. وكان ذلك من نوع التعب الذي يؤدي إلى القلق بدلا من النوم - كانت تمنى أن ترى ضوء النهار يطلع فيبدد هذا الليل الكريه إلى الأبد.

إنها الآن تعرف اسمها ومن أين أنت . ولكن تلك المعرفة لم تعطها الراحة التي كانت تنشدها إذ ليس لها إنسان تلجأ إليه.

نعم إنها ستعود إلى مسرح الدرجة الثانية.... ليس هناك بديل آخر .

أول شيء ستفعله في الصباح هو أن تعود إلى توركاوي إلى المقهى الذي كانت تقيم فوقه حيث تأمل أن تجد حقيبتها وممتلكاتها القليلة. كانت تحتفظ بدفتر توفير يحتوي على مبلغ صغير من المال في هذه الحقيبة وبرغم ضالة هذا المبلغ إلا أنه يمثل شيئاً من الاستقلال بالنسبة إليها إذ يكفي نفقاتها حتى تجد عملاً . لذلك فهي تتعلق بأمل راسخ أن تجده في انتظارها . حدثت في الحدود الباهتة لنوافذ الغرفة. توقف الرعد وكان الهواء الذي يمر من الستائر رطباً . لو كان موسم الاجازات في بدايته بدلا من نهايته ربما استطاعت أن تجد لنفسها عملاً في مطاعم توركاوي ولكنها تشك في وجود عمل في أحد هذه المطاعم في هذا الوقت من السنة بالنسبة إلى ممثلة مثلها تجيد الالقاء ولكنها لا تجيد توصيل الطلبات.

انفتح باب غرفتها فتسمرت في سريرها.

«إنه أنا يا بنيتي!»

كانت السيدة تشيز تحمل مصباحاً مضيئاً وظل جسمها المنحني المشع يروب طويلاً يتراقص على الحائط ، وكان تنفسها ثقيلاً ومنهكاً . تقدمت ببطء إلى سرير ليجيا وجلست بتناقل في الكرسي بجانب السرير.

«كنت أعلم أنك لست نائمة ، ضايك أفري أليس كذلك ؟»

جلست ليجيا في السرير وأظهر ضوء المصباح المتراقص شحوب وجهها والظلال الطويلة لرموشها على خديها.

«أفري واسع الأفق عادة - لهذا تضايقت ، إنه بالتأكيد يصدق ما قالته جردا من تلميحات عن...عني وعن روبرت ؟»

سألت السيدة تشيز بخسونة:

«هل هي تلميحات فقط ؟»

شاع الدم في وجه ليجيا وأطبقت ذراعيها على ركبتيها وهي تتذكر تلك اللحظات السوداء التي أصابتها بالدوار بين ذراعي روبرت والشعور المخيف بأن الأرض تنشق تحت قدميها.

كانت جدته تراقبها عن كثب :

«حسناً ؟»

همست ليجيا هذه الكلمات .

«كيف حدث ذلك ؟ هل تخبريني من البداية ؟»

هزت ليجيا رأسها ، وفجأة أخذت الكلمات تتسابق من فمها ، لم تكن تعرف أن الافضاء بما يشغلها بهذه البساطة وفي الوقت نفسه يمنح هذه الراحة النفسية... قصّت كل شيء ، كيف نامت تحت شجرة العليق وكيف استيقظت فوجدت روبرت يقف أمامها ثم الشاي في الكوخ وعودة الذاكرة إليها. وكيف شعر روبرت بالغضب الشديد لتأكده أنها كانت تخدعهم برغم كل شيء وكيف أمسك بها بوحشية وعانقها.

قالت السيدة تشيز وهي تدير الحاتم في إصبعها فيضيء بلون أحمر دموي كالعاطفة المشوبة عندما يسقط عليه الضوء ثم يتطفئ ويستم كالخطيئة عندما يبتعد عن الضوء .

«هذا الولد شيطان عندما يريد - هذا شيء لا يمكن إنكاره . إنه يقلقني باليجيا . لا أعرف ماذا سيفعل بحياته وأنا أتقدم في السن وأزداد تعباً كل يوم وأقترب من ذلك الباب الأخير الذي ستعبره جميعاً . إننا نمر من أبواب كثيرة في حياتنا يابنتي فنجد الشمس وراء بعض هذه الأبواب والظلام وراء البعض الآخر . ولكني أظن أنك بدأت تتعلمين ذلك .»

نظرت ليجيا في عيني السيدة العجوز السوداء واللتين انكشفت أمامها كل أسرار الحياة وشعرت بشبابها وحاجتها إلى مزيد من الخبرة وانتابها خوف من المستقبل وما قد ينتظرها من متاعب فاهتز صوتها وهي تقول :
«الحياة أيضاً كجبل ، نصعد ثم ننزل ونجد بقعاً جميلة أو نخذل في أماكن أخرى ، إن كل ذلك مخيف .»

هزت السيدة تشيز رأسها وهي تتذكر شبابها وأخطأها واكتشافها مع مرور السنين أن الركائز التي يوفرها المال والجاء والمركز هي ركائز هشة برغم كل شيء .
«هل تعتزمين حقاً أن تتركينا غداً ؟»

«نعم ، لا أستطيع الاستمرار بلا عمل وبلا هدف . يجب أن أفعل شيئاً .»
«ماذا عن النقود ؟ ستحتاجين إلى ثمن التذكرة إلى توركاوي ثم بعض المال حتى

«لدى نقود كان آفري يعطيني بعض النقود كمصروف جيب وتبقى منها معي ما يكفي لسفري . طبعاً سأرد كل هذا بمجرد أن يمكثني ذلك .»
«إنه لن يسمح لك . إنه ولد طيب ولكنه تصرف تصرفاً سيئاً الليلة لأنه كان يشعر بالغيرة . يجب أن نغفرداتها للرجل غيرته يا ليجيا لأنها في الواقع إطرأ لنا.»

قالت ليجيا وقد صعد الدم إلى وجهها :

«إنني أغفر له بالطبع ، لقد كان عطوفاً لأقصى درجة بالنسبة إلي وقد رددت جميله بأن ذهبت إلى كوخ روبرت . واليوم بالذات بينما هو في بلايموث ! لا بد أن الأمر يبدو وكأنني انتظرت غيابه عن عمد لأذهب .»
ثم أضافت :

«الناس الطيبون لديهم أحياناً لمحة من القسوة تكون أكثر إيلاً مما لو صدرت عن الأشخاص السافرين.»

«تقصدين أشخاصاً مثل روبرت .»

«نعم أقصد ذلك . فالشخص الآخر لا يمكن أن يصاب بخيبة أمل . فبالنسبة إليه ليس هناك ملائكة ولا جنة على الأرض ولا حدائق في الشتاء . الناس جميعاً مختلفون ومن الصعوبة بمكان معرفتهم على حقيقتهم أليس كذلك ؟»

«نعم عندما نكون صغار السن.»

شعرت ليجيا بالامتنان للسيدة تشيز لأنها وجدت فيها امرأة متفاهمة معها . ثم قالت السيدة تشيز :

«انظري يابنتي ، لن اقتنعك بعدم الذهاب ولكن لا تبقي بعيداً لمدة طويلة خاصة بعدما أصبحتنا أصدقاء . لا تجعلك كبرياءك تمنعك . آفري سيحب أن تعودني وأن تعتبري تشيز منزلاً ثانياً لك.»

«هل سيحب ذلك ؟ سأفكر في الأمر.»

بدت ليجيا حائرة بل وخائفة من الدعوة .

«نعم أرجوك أن تفكري ، البعد قد يغشى البصر ولكنه يجلي البصيرة . والآن افتحي يدك ، سأقدم لك هدية بمناسبة رحيلك .»

«لا...»

«إنها شيء تافه من أيام شبابي المتعثر».

كانت السيدة تشيز تبدو ساخرة وهي تفتح منديلا وتخرج منه سلسلة ذهبية دقيقة جدا كشرتين مجذولتين يعلق بها فرس بحر صغير من الحجر الأزرق الشفاف.

«إنها جميلة أليس كذلك؟»

«نعم ولكن...»

«أوه أسكتي - اقتربي لأضعها حول عنقك».

اقتربت ليجيا على مضض فألبستها السيدة تشيز السلسلة وهي تقول :
«مسكين فرس البحر هذا - يجب أن يوضع على صدر دافء شاب - ظل قابعا في علبة المجوهرات لسنين طويلة - ها قد بدأت غيتاه تيرقان. انه من الماس الحقيقي هل يعجبك؟»

«كيف لا يعجبني ! إنه لعطف عظيم منك أن تمنحني إياه - لا بد أنه ثمين للغاية يا سيدة تشيز أليس كذلك؟»

تمت ليجيا أن تقول السيدة تشيز إنه غير ثمين لتجعل قبوله سهلا ولكنها لم تفعل بل أخذت تنظر إلى ليجيا بنحافتها وصغر سنها ثم قالت وهي تبدو قلقة :

«هل تأكدت جيداً من صواب قرارك . إنك أصغر من أن تعيش بمفردك في هذا العالم».

قالت ليجيا وقد بدا عليها عدم الثقة :

«أوه - لا أعلم كنت بمفرد في الثانية شهر الأخيرة - ومهما يكن من امر ، لدي الآن شيء يجلب الحظ - سأحتفظ به إذا لم يكن ثميناً جداً».

«طبعاً ستحتفظين بفرس البحر بلا مناقشة - أهداني إياه شاب ذهب إلى الحرب ولم أره مرة ثانية ، وأنت تشبهينه. إنك مغرية يا ليجيا رغم أنك لا تعلمين ذلك . لذلك يجب أن تكوني حريصة يا بنيتي في هذا العالم».

«ذلك المستنقع المتوحش الشاسع».

أمسكت السيدة تشيز بيدي ليجيا وضغطت عليها بقوة. ثم قامت

وتناولت المصباح فرأت ليجيا وجهها الشاحب المتعب .

«سيدة تشيز».

«ماذا يا بنيتي؟»

«أشكرك على كل عطفك».

نظرت إليها السيدة تشيز ثم قالت :

«مم تهربين هذه المرة يا بنيتي ؟ إنني أتأمل إذا كنت أنت نفسك تعرفين».

«يا لك من امرأة لعينة - أريد أن أعرض عليك عملاً»

«عمل؟»

بقيت ذراعها ممدودة وهي تمسك النافذة بينما تحمق فيه بعينين واسعتين :

«ماذا تعني ؟ أي نوع من العمل؟»

«لا نستطيع أن نناقش الأمر هكذا ونحن نصيح على بعد كروميو وجولييت»

سنوقظ كل المنزل»

«روميو لم يكن يصيح!»

«لو كنت أنت جولييت لفعل - والآن إليسي وانزلي الى هنا لأني سأعرض عليك

عملاً إذا كان ذلك مهمك»

أخذ ينظر إليها في انتظار ردّها ولكنها لم ترد للحظات . وأخذت تنظر إليه وهي تتذكر كيف افترقا بالأمس والطريقة التي سار بها في مر شجر الصنوبر والظلمة تغلفه . كان مشهداً حزيناً وهي متأكدة أنه قصد أن يكون وداعها الى الأبد . لذلك تعجبت من عودته هذا الصباح ولم تصدق ما عرضه عليها . عمل ؟ نظرت الى عينيه الصاحكتين كالشمس التي تظهر وتختفي عبر البحيرات المعتمة ورغم أنها كانت محتاجة لأي عمل إلا أنها لم تستطع التغلب على التردد الذي اعترأها . «إني أخشى ذلك الضحك الشرير حول عينيه الذي يكرمش الجلد حتى الشعر»

مرت كلمات شيللي بمخيلتها قبل أن تقول له :

«حسناً سأرتدي ملابس»

عندما وصلت الى الفناء بعد دقائق كان نور الصباح قد ازداد إشراقاً والعصافير تتناقر في الحديقة خلف الباب الأخضر . وكان روبرت يقف بصبر نالده . قالت ليجيا بنفس متقطع :

«أهلاً!»

استدار ناحيتها :

«إنكن أينما النساء تستغرقن وقتاً طويلاً لترتدين بعض الملابس»

«كان يجب أن أغسل وجهي»

«كان يجب أن تستحمي أيضاً . فأنا ليس لدي عمل طوال اليوم»

٨ - بين لندن وكندا

عندما استيقظت ليجيا كان نور الصباح الرمادي يخترق النوافذ . وشعرت وهي مستلقية في السرير أن ما أيقظها لم يكن الأصوات الصباحية التي اعتادت عليها في تشيز . سمعت الصوت مرة أخرى . كان صوت برد أو حصى صغيرة تُلقى على النافذة القريبة منها . قامت إلى النافذة وفتحت الستائر التي كانت مازال مبتلة من المطر . «أنت؟»

رسمت الكلمة بشفتيها فقط عندما نظرت في الفناء مباشرة في عيني

روبرت تشيز السوداوين .

ابتسم بسرعة وأخذ يشير إليها لتفتح النافذة .

قالت بصوت عال :

«هل كنت أنت تلقي الحصى؟»

«نعم - ارتدي ملابسك - أريد أن أتحدث معك»

نظرت إليه بدون أن تنطق بحرف ، كان وجوده هنا غير معقول . ثم اعترأها

الغضب من جرائته في المجيء بعدما حدث الليلة الفائتة . فردت قائلة :

«أنا لا أريد أن أتحدث معك - لقد ودّعنا بعضنا البعض الليلة الفائتة»

«ليجيا لا تغلقي النافذة»

«أذهب»

«أما أنا فمشغولة.»

نظر إليها وعندما لمس فجأة البقعة الزرقاء بجانب عينها تراجعت.

«من الذي ضربك؟»

«لا شيء، هل تريد أن تتكلم هنا؟»

«لا، ليس هنا.»

أمسك معصمها وفتح باب الحديقة. لوئت الأعشاب الطويلة المبللة أذنيتهما وشعرت ليجيا برطوبة الأعشاب فتذكرت العاصفة.

«هل سببت العاصفة أضراراً كثيرة؟ قال ديفيد الليلة الماضية إن العاصفة القوية قد تؤدي إلى فيضان خاصة أن سور البحر في برنثام متهدم.»

«هل قلقت عليّ ياليجيا؟»

كان يضحك بصوت خفيض فسحبت يدها بحدة من يده.

«ذلك العمل الذي ذكرته - ما هو؟»

«تشيل دور ابنتي في رواية «العاصفة هي ميراثي».

أفقدتها الصدمة القدرة على الكلام وأخذت تنظر إليه بتمعن:

«هل أنت جاد؟»

«العرض حقيقي أيتها الساحرة الصغيرة. كان يمكن أن أعرضه عليك الليلة الماضية لكنني لم أفكر في الأمر.»

قالت وهي تكاد تبكي:

«كنت مشغولاً باتهامي بالغش... اتركني سأعود إلى مسرح الدرجة الثانية.»

«لا لن تعود.»

جذبها فاقتربت منه فجأة:

«أيتها البلهاء هل تعتقدين أنني لا أعرف كل شيء عن مسرح الدرجة الثانية وعن التجول الدائم؟ هل تظنين أنني لم أعتل خشبة تلك المسارح المخلعة ولم

أثقل في سرير، غريب فراشه كقطع الفحم.»

هزها فتراقص شعرها وبرقت عينا فرس البحر الماسيتان بخوف وهو يتأرجح في سلسلته.

«طبعاً أنا أعلم وأقول لك إنك لست مضطرة للرجوع إلى مثل هذه المسارح، هل

تسمعينني؟»

كانت ترتعش وظهرت الكدمة على عينيها كبقعة حبر. بدا لها كل شيء غير

حقيقي. هي وروبرت شخصان يمثلان مشهداً من مسرحية.

«أوه فيا. فلتنطقي بشيء.»

تكلمت بطريقة آلية:

«ليس لدي خبرة في المسارح الكبرى ولا أعتبر نفسي الشخص المناسب للدخول في ذلك المسرح. وأنا لا أفصح في أي دور إذا لم أكن مقتنعة به كما أن شكلي غير

جميل.»

«أرى أن شكلك ليس جميلاً ولكن الدور ليس دور ممثلة في كباريه. وأي نقص في خبرة المسارح الكبرى لن يضايق فنتون لاي إذا استخدمك - هل هناك

شيء آخر؟»

«أنا...»

نظرت بعيداً عنه وأخذت تراقب أوراق الشجر وهي تتساقط.

«لا أظن أننا نستطيع العمل معاً.»

«لماذا؟»

«لماذا؟ هل نسيت ما قلته لي أمس عندما اعتبرتني غشاشة. ألا تشعر بتأنيب الضمير عندما تضايق الناس؟»

«هل كنت أضايق الناس لو كنت أستطيع أن أشعر بتأنيب الضمير؟»

«أوه إنني أكره هذه الطريقة في الكلام.»

«لاغنى عنها أليس كذلك؟ لنقل بدلاً من ذلك إنني لا أضيع الوقت في الأسف على شيء لا أستطيع أن أغیره.»

«تستطيع أن تقول إنك متأسف.»

رفعت إليه وجهها الشاحب المخرج واكتسى بوقار الحقيقة مع الألم من كونه شك في هذه الحقيقة من البداية.

ثم سأله ببساطه:

«لماذا لم ترد أن تصدقني أبداً. ولماذا تكرهني إلى هذه الدرجة؟»

أراد أن يرد عليها معبراً عن ضيقه لأنها تسأله عن مشاعره الشخصية ولكنه

لم يفعل . ومع ذلك فلماذا لا تسأل ؟ إنها لم تستطع أن تستحوذ على ثقته فيها حتى لو لم يعجب بها .
قالت :

«كنت لطيفاً ونحن نشرب الشاي ، لماذا لا تكون هكذا دائماً ؟»
«أنا لا أدري حقاً ! هيا لنتفق على موضوع الرواية . أنت محتاجين الى عمل وفتنون لاي يحتاج الى مثله ذات وجه ضاحك مثلك . عندما عدت الى الكوخ أمس تذكرتك وأنت تجلسين مبتلة وتائهة في روبي الكبير فتتحققت أنك أنت التي نحتاجها لهذا الدور يا فتاتي العزيزة - الدور الذي تقوم به الفتاة التي تدعى «عاصفة» بلباسها المدرسية ونظارتها وعدم قدرتها على كسب حب والدها الأثافي ، دور ممتاز كما أن فتنون لاي سيفقد حقه في استعمال مسرح الغالا إذا لم يستقر نهائياً قبل آخر تشرين الاول / اكتوبر فهذا تقولين ؟ هل تريدن الذهاب الى لندن ومقابلته أم لا ؟»

«هل يجب أن أقرر الآن وفي الحال ؟»

«نعم يجب أن نتفق قبل أن تتركي تشيز ، إنك ذاهبة أليس كذلك ؟»
«نعم سأترك تشيز وأعود الى تور كاي لأسترد حاجياتي من ذلك المقهى الذي كنت أقيم فيه .»

«كنت أعلم أنك ستعودين !»

تكلّم بطريقة قاطعة :

«هل أخبرت أفري أنك أتيت الى كوكي ؟»

صعد الدم الى وجهها :

«لم أستطع أن أنفادي ذلك - كنت أليس معطفك وتعرفت عليه جردا وكان عليّ منها يكن أن أخبرهم أين كنت ، إننا لم نرتكب خطأ.»
«إنني أتذكر أنني عانقتك .»

ابتسم قليلا ولكن بدون مرح :

«لم أقصد أن أفعل ذلك . فانا لم أخذك الى منزلي لهذا الغرض وليس من العدل أن يظن أفري ذلك - هؤلاء الناس الأخيار يبدون أشراً في بعض الأحيان . إنه ذلك التمسك الصارم بأهذاب الدين والفضيلة - الخاطئ . لا بد أن يحترق -

سأمسك يدك وأنت في النار ولكن لا بد أن تحترق !»
«من الغريب أن تقول هذا .»
«لماذا ؟»

«لأنني أنا فكرت في الشيء نفسه بالأمس . الناس الطيبون يكونون قساة أحياناً.»
اقتشعرت ونظرت الى وراء ناحية تشيز بأبراجه الرمادية العتيقة المغطاة بالنباتات المتسلقة ، وخلفه السماء الزرقاء ومنحدرات الحديقة الخضراء الباهتة . بدا المنزل القديم وكأنه يتأمل في ذكريات الماضي . كان روبرت يراقب ليجيا . ورأى فيها يرتعش كطفلة متألّة وحائرة - سألها روبرت :

«كيف حدثت هذه الكدمة ؟»

«أه ، سقطت على السلالم - هل ظننت أن أفري مسؤول عنها ؟»

«لا أعرف ، إنها فكرة غريبة ولكنها ليست مستحيلة . إنه أيضا من عائلة تشيز.»

ابتسم ابتسامته الخاصة وقال :

«من الجائز أن يكون الأفضل لك أن تبتعدي عن كل عائلة تشيز وألا تذهبي الى لندن - ولكن الأمر متروك لك - أمامك فرصة وإن كانت ليست أكيدة لأن تتركي مسارح الدرجة الثانية وكل متاعبها . هذه فرصة لتكسبي بعض المال وتصبحي مستقلة.»

«أبي كان يتمنى أن أجرب ، كان طموحاً جداً في شبابه ولكن طموحه مات بموت أمي .»

«ومتى كان ذلك ؟»

عندما كان عمري أحد عشر عاماً - ماتت في المستشفى . كانت جميلة جداً ، وكان أبي يقول إن زرقة عينيها كانت كزرقة السماء في كيلارني ، فقد كانت أيرلندية.»

«هذا إذاً هو السبب في هذه العيون البنفسجية المحاطة بالشعر الأسود.»

رفع رأسها وقال :

«انظري أيتها الشريفة الغريبة - أيتها اللغز الغامض الذي أتى من الخواء ، إنني أعتذر الآن عن كل ما قلته وما فعلته وخاصة عن الطريقة التي عانقتك فيها

بالأمس.

قالت بتحفظ غير راغبة في أن تخاطر بقبول أي بادرة عطف كما فعلت بالأمس ، اذ تعلمت ألا تثق كثيراً في الناس :

«أنا قاربت العشرين ... حسناً سأذهب لمقابلة فنتسون لاي وأشكرك على اقتراحك.»

«هذا أفضل والآن يحسن أن نعود الى تشيز . ومتى تنوين السفر الى توركاوي؟»

«على الفور.»

ثم أخذاً يسيران عاندين الى تشيز .

«أستطيع أن أستقل الأتوبيس من برنهام.»

«هل لديك نقود؟»

«نعم أشكرك.»

سارا بضع يارداً ثم قال فجأة :

«لا تنزلي في ذلك المقهى يا ليجيا.»

سحب حافظة نقوده من جيبه الخلفي وأخرج منها ست ورقات ودفعها في جيب سترتها قائلاً :

«خذني هذه النقود - اعتبرها مقدماً من مرتبك إذا أردت ، واحجزني لنفسك غرفة في فندق تناغرا إنه مكان محترم وسأحضر اليك هناك الساعة العاشرة صباح غد ونذهب للندن معاً ، هل اتفقنا؟»

«ولكنني لست محتاجة للنقود يا روبرت.»

أخرجت النقود من جيبها بضيق ولم تلاحظ ابتسامته القصيرة عندما نظفت باسمه . ومرة أخرى في لحظة عدم رضى مدت يدها بالنقود :

«أرجوك أن تأخذ النقود. أستطيع أن أسحب بعض النقود من دفترتي للتوفير، إنه في حقيقتي في المقهى.»

«ليجيا - ألم يخطر ببالك أنك قد لا تجد حقيبتك في المقهى - قلت بنفسك إن صاحبه مريب.»

بدا عليها الذعر :

«ولكن يجب أن تكون هناك . إن فيها ملاهي ودفتر توفيري الخاص الذي لا يمكن أن يستخدمه احد.»

«هذا صحيح - ولكن صاحب المقهى ربما يكون قد تخلص من الحقيبة. يجب أن تضعي هذا الاحتمال في اعتبارك. هل تقودي كريمة لدرجة أنك تفضلين أن تجدي نفسك في توركاوي بلا قرش في جيوبك.»

«لا - بالطبع لا.»

«إذاً احتفظي بالنقود وإذا وجدت حقيبتك فأنا متأكد أنك ستردين الدين بكل سرعة ولكنك قد تحتاجين لهذه النقود.»

شكرته لتفكيره واهتمامه وأخذت النقود - وصلا الى باب الغناء وقبل أن يفتحها روبرت قال لها :

«لن تهربي ، أليس كذلك ؟ عقدنا اتفاقاً وأتوقع أن تحترمي.»

«سأحترمه.»

وقفت أمامه والهواء يعبث بشعرها وقالت في تردد :

«هناك شيء آخر ... مع ذلك.»

«ما هو؟»

«جدا ! ألن تشعر بضيق من ذلك ؟ إنها لا تحبني كثيراً و...»

بدا عليها الحرج .

«ماذا؟»

«أظن أن لها رأياً فيما تفعله.»

نظرت نحو الأرض لأنها كانت تكره أن تتكلم في موضوع شخصي ولكن ألم يكن ذلك ضرورياً ؟ إن جدا ستكره كل هذا وستغضب بشدة لأنه أراد إشراك ليجيا في التمثيل معه.

كانت هناك لحظة سكوت ثم قال :

«هل غضبت جدا عندما تعرفت على معطفي؟»

«نعم.»

«لا بد أنك تعبت من الغاضبين.»

نظرت إليه باندعاش ، فابتسم وقال :

«لا تهتمي بجردا ، سأكلمها. والآن هيا ادخلي لتتناولي إفطارك سار معها حتى البهو ثم ذهب ليرى جدته. كانت يد ليجيا ترتعش وهي تفتح باب غرفة الطعام. كان أفري يتناول إفطاره ويقرأ الصحيفة ولم تكن جردا قد حضرت بعد».

عندما سمع خطواتها ترك الصحيفة وقال :
«صباح الخير».

كان ككل صباح إلا أنه لم يتسم بتلك الطريقة الدافئة.
قال وهو ينظر الى شعرها الذي شعته الهواء:
«كنت في الخارج أليس كذلك؟»
«نعم».

«هل كنت مع بوب؟»
«نعم».

«هل لي أن أعرف ماذا يجري هنا؟ إنك تحت مسؤوليتي طالما أنت تقيمين هنا، هل تعرفين ذلك؟»
«لا شيء يجري يا أفري - روبرت يظن أنني قد أستطيع الحصول على دور في المسرحية الجديدة التي يمثلها - لهذا حضر الى تشيز هذا الصباح ليسألني إذا كنت أحب أن أذهب وأقابل المخرج في لندن».

«وستذهبين؟»
«نعم».

«أه».

كان أفري يمسك ملعقة يعيث بها والآن ألقاها على المفرش .
«لقد غيرت رأيك تماماً فها يختص بروبرت أليس كذلك يا ليجيا ؟ كنت تقولين إنه يخيفك - والآن ألا يخيفك؟»
«عندما كنت مصابة بفقدان الذاكرة كنت أخاف من أي شخص مرتبط بالمسرح إنك تعلم ذلك يا أفري».

نظر اليها أفري بتعجب :
«هل أعلم ذلك ؟ مهما يكن من أمر فإن روبرت ليس فقط مرتبطاً بالمسرح ،

ولكنه ابن رجل انتحر عمداً بإغراق نفسه لأنه كان أضعف من أن يواجه الحياة ، ولأنه لم يستطع إسعاد زوجته ، ولأنها هي كانت تريد أن تتركه. من الجائز أنه لم يقصد أن تموت معه، ولكنها برغم ذلك ماتت . وقد ترك ذلك أثره على بوب وجعله رجلاً ذا مزاج سوداوي غير مضمون . رجل لا يمكن الثقة فيه لأنه هو لا يثق في الناس ، انه يوجه دأنا الضربة الأولى ولا يهجم إذا أصابت صديقاً بدلاً من أن تصيب عدواً ... ليجيا .»

مال أفري ناحيتها وأخذ يتأمل ملامحها وعينيها ووجهها ثم قال :
«إنك كنت دأنا تشعرين بهذا في بوب وكان يقلقك عن وعي أكثر مما كانت تقلقك ارتباطاته المسرحية لا شعورياً. والآن تقولين إنك ستذهبين إلى لندن معه ! لا أستطيع أن أتركك تفعلين ذلك ! لن أتركك تفعلين ذلك».

قام وذهب إليها حول المائدة وأمسك بيديها وضغط عليها وهو يكاد يسحقها.
«كان يجب أن أخبرك الليلة الماضية . ولكن موضوع الكوخ ... مهما يكن من أمر فلننساه. عندما كنت في بليموث كان لي حديث طويل مع ماكس ينتس . حديث هام وممتع . إن له عيادة في تورنتو ويستعمل الأطباء طرق العلاج التي أستعملها تقريباً. وقد دعاني ماكس لأذهب هناك لفترة. وقد فكرت في الأمر أثناء رجوعي من بليموث الليلة الماضية - وأظن أنني سأذهب - ما رأيك في أن تأتي معي؟»
«أتني معك؟»

كررت كلماته وهي مندهشة :
«إلى كندا ؟ ولكن يا أفري».

«نعم لم لا ؟ يمكن أن نخول رحلتنا إلى رحلة شهر عسل .»
كانت يداه دافنتين واختفى تماماً أفري البارد الغريب . إنه الآن أفري الذي تعرفه وهو يقدم لها الراحة والحماية وهي في أشد الحاجة إليها ... يقدم لها نهاية لوحدها.
«لا !»

قالتها بعنف وسحبت يدها من يديه.
«الأمر ليس بهذه البساطة ! وهذا تصرف غير سليم ! ألا ترى ؟ هذا الصباح لم

أكن أعلم ما سأفعله . كنت منزوعة وقد حضر روبرت ووعده بالذهاب معه إلى لندن .

«بوب ، إنه لا يمكن التنبؤ بما سيفعله - إنه كالهواء ، كيف أشرح لك.»
«حاولتم جميعاً أن تشرحوا لي - تكلمتم جميعاً عنه ، تكلمت جدتك عنه ، ولكن أعلم فقط أنه كان طيباً معي هذا الصباح - جعل الأمور تبدو أقل بأساً عندما طلب مني الذهاب معه إلى لندن - إن فتون لاي رجل مهم في عالم المسرح يا أفري وفرصة لقائه ليست متاحة للجميع.»
«حسناً.»

تحول عنها وجذب غليونته من جيبه ووضعها في ركن فمه.
«حسناً، إذا كان هذا ما تريدته. إنها حياتك ياليجيا - ولن أفرض نفسي عليك.»

سار ناحية الباب ثم استدار وقال :
«وماذا عن جردا - هل علمت بنوايا بوب ؟»
«جردا ؟»

«نعم هل أخبرها بوب ؟»
«سيخبرها.»

«قد لا يعجبها ذلك.»

«لا، لقد قلت ذلك لروبرت - لا أظن أنها ستكون مسرورة.»

«إذا ما الذي ستفعلينه إذا فشلت الفكرة.»

«لم أفكر - ولكن لا أظن أنها ستفشل - لا أظن أن أحداً أياً كان يمكنه أن يمنع روبرت من أن يفعل ما يريد.»

ولكن أفري قال بعناد :

«جردا قد تفعل ذلك - إنها قد تفعل ذلك - إنها جميلة جداً وروبرت رجل.»

«إنه يمثل أولاً - إنه شيء غريب يا أفري ، ولكن كل العاملين بالمسرح

لا يضعون حياتهم الشخصية في المقام الأول.»

«هل أنت عضو متحمس لهذه الدرجة في مهنة التمثيل ؟»

قال أفري بنغمة من السخرية في صوته الحاد :

«أنا أشعر شعوراً قوياً أنك تضعين المسائل الشخصية قبل المسرحية. وهذا السبب حاولت الهروب منها عن طريق فقدان الذاكرة - لذلك تأكدي جيداً أنك لا تخطئين إذا أنت عدت إلى المسرح.»

«ماذا تعني ؟»

«قد يعود إليك فقدان الذاكرة.»

«لا !»

«نعم إذا حدثت لك الضغوط نفسها التي أدت إلى حدوثه من قبل.»

«ولكنني لا أستطيع أن أخذل روبرت - إن هذا سيؤلمه.»

«اللجنة على روبرت.»

قال أفري بغضب وضيق شديدتين :

«منذ متى يستطيع روبرت أن يتألم ؟ إنه مغلف بدرع يزداد سمكاً مع الأيام. إنه لم يبك وهو طفل عندما أخبرته جدتي ب وفاة والده والدة - أنا الذي بكيت . أليس هذا غريباً.»

«لا يا أفري - إن الذين يبكون هم المحظوظون.»

«محظوظون جداً ! هل سأبكي لأنني لن أخذك معي إلى كندا وهل سيجعلني هذا أشعر بالراحة ؟»

قبل أن ترد كان قد خرج وصفق الباب . بقيت ليجيا للحظات طويلة تنتظر لعله يعود ولكنه لم يعد.

أن روبرت أخذها إلى الكوخ، هذا هو التفسير الوحيد. وهناك على الأرجح سيخبرها بنواياه فيما يختص بمسرحية «العاصفة هي ميراثي» - ولم تجد ليجيا صعوبة في تصور كيفية تقبل جردا لهذا الخبر - لابد أنها ستبني عليه أسوأ الاحتمالات خاصة أنه بعد زيارة ليجيا للكوخ والتي كانت جردا غير مطمئنة لها.

ابتسمت قليلا ولكن الابتسامة ماتت عندما تذكرت ما قالتها جردا في الشرفة في تشيز من أن لها «حقوقاً على روبرت» وإحياءاتها التي تعني ما تقصده بكلمة حقوق. لم تكن ليجيا تريد أن تعرف ذلك فهي تعتبر أن الانفصاح عما يجري بين جردا وروبرت عندما يكونان على انفراد شيء رخيص ومبتذل. ذكرها ذلك بكلمات لونغريف

«أوه . يا للعار يا أنسة. لا يجب أن تقبلي ثم تذهبي الخبير»

في هذه اللحظة انفتح باب غرفة الانتظار ودخل روبرت تماماً في اللحظة المناسبة !

كان يعتمر قبعته التي بلل المطر حرفها، بزاوية منحرفة على عينيه وكان بانكر يمشي في إثره. ولكن عندما رأى الكلب ليجيا نبح وفقر عبر الغرفة تجاهها وهو يكاد يسقط على منضدة في فورة انفعاله. ارتفعت الرؤوس وخشخت الصحف بضيق بينما ابتسمت لهم ليجيا باعتذار وهي تقبل الكلب على رأسه الذهبي. حمل روبرت حقيبة ليجيا وخرج معها من الفندق وهو يقول:

«إذا لقد وجدت الحقيبة - هل كان كل شيء كما هو؟»

«نعم وهذا أسعدني»

«طبعاً أنا متأكد من ذلك»

نظرت إليه نظرة فيها عتاب ثم قالت :

«ليس لأنني لا أريد نقودك - ولكن بسبب بعض الأمور الشخصية التي تهمني والتي لا أستطيع تعويضها ، ك بعض الصور والخطابات ومذكرات والدتي»
«أنا شخص جامد ياليجيا رغم ذلك أعرف أن هناك أشياء لا تقدر بمال وأعرف أنه لا يمكن التعويض عن الأخطاء بالنقود. ولكن هذا ما كنت أحاوله بإعطائك

٩ - هل يعجبك منزلي ؟

كان فندق تناغرا الفخم مينياً فوق الصخور الحمراء المطلّة على ميناء توركاوي . في الصيف يعج بالأزهار والورود الزاهية، لكنه في هذا اليوم من أكتوبر/تشرين الأول يبدو مكتئباً كفتاة ارتدت ملابس الصيف وفوجئت بجمو الشتاء. النوارس الرمادية والبيضاء تطير من البحر فوق مداخن الفندق ، والمدفأة مشتعلة في غرفة الانتظار.

جلست ليجيا بجانب نافذة تطلّ على الميناء وقد ارتدت ملابسها وهي تنظر بقلق ، تارة إلى البحر وتارة أخرى إلى الساعة ثم الباب. قاربت الساعة العاشرة وسيصل روبرت بعد قليل . وهي خائفة ومليئة بالقضول وتشعر ببعض الصداق. لم تتم تقريباً هذه الليلة فقد أفلقها وداع أفري .

لم تكن تعلم أنها مغرمة بأهل تشيز إلا عندما ودّعتهم . أفري الجاد بشعره الأشقر و تاجر العجوز الذي قال لها : من سينظف ممرات الحديقة الآن؟»

لم يكن من المفيد أن تفكر طوال الوقت في تشيز . ولكنها لم تستطع أن تتوقف عن التفكير فيهم ، فالوجوه التي تعرّفت عليها في تشيز تطاردها. بدت السيدة تشيز وقد بلغت من العمر عتياً ضعيفة وهي تجلس على كرسي في غرفة الجلوس الخاصة بها تحيطها صور زوجها وأولادها.

لم تكن جردا هناك عندما غادرت المنزل وكان هذا هو الشيء الوحيد المريح في ذلك الصباح المرهق ، ولكنها لم تفهم السبب إلا بعدما ركبت الباص ، فلا بدّ

تلك النقود»

«أنا لا أصدقك ! انتي لم أرفض النقود لأنني تصورت أن هذا قصدك ولكن لأنني

أحب أن أكون مستقلة - وقد أخذت فعلاً الكثير من أفري .»

«ولكن أخذك النقود من أفري لم يضايقك هكذا؟»

«أظن لا ، ولكنه كان تصرفاً كريماً منك.»

«لم يكن كذلك ، كان ضميري يؤنيني فقصدت إسكاته بإعارتك هذه النقود هل

هي معك؟»

«نعم - ها هي .»

أخذ النقود ووضعها في جيبه بدون أي كلمة أخرى - ثم سار إلى أحد محال

الحلويات الفخمة ودخله بيتاً وقفت ليحبها ويدها على طوق بانكر وهي

تراقب المحل باندعاش وبدأ المطر يتساقط

قال سائق التاكسي :

«تفضلي يا أنسة.»

«آه ... نعم .»

سحبت بانكر وصعدت في التاكسي لكنها أطلت برأسها لتراقب روبرت

وهو يخرج من المحل حيث تأكدت أنه سيأتي ومعه أكبر وأخفم علبة شوكولاته

في المحل. وكانت على حق ! عندما صعد طلب من السائق أن يتوجه إلى محطة

السكة الحديد ثم وضع علبة الشوكولاته الكبيرة في حجرها.

«روبرت !»

«هل هذه من اللحظات الصعبة؟»

أخذ يراقبها من تحت قبعته الأنيفة . وردت قائلة :

«إنها لحظة جنون مطلق - لماذا اشتريتها؟»

«لتجدي شيئاً تأكلينه في القطار.»

«هل كان ما قلته من سبب إعطائي النقود لراحة ضميرك؟»

هز كتفيه . أخذ بانكر يلحق يده .

«في أية حال كان تصرفاً كريماً . كل التصرفات سببها الحاجة إلى إرضاء الجسم أو

الضمير فمثلاً عندما تربت على بانكر فإنك تفعل ذلك لأن ملمسه لطيف

ولكن هذا لا يقلل من سعادة بانكر وكونك تربت عليه.»

«ماذا تقصدين؟»

«أقصد أنك لا يجب أن تشعر بالذنب بخصوص النقود. وفي إي حال فقد صرفتها

وبإسراف كبير.»

ثم ابتسمت بسرور :

«إنها علبة جميلة جداً ! لم أر مثلها من قبل !»

راقبها وهي تحتضن العلبة الكبيرة ثم قال :

«لقد جنيت جزاء إسرافي .»

قالها بطريقة تكاد تكون أجنبية . نظرت إليه باندعاش وعندما قابلت عينيه

السوداوين تذكرت أنه نصف أسباني . إنه مثل مصارعى الثيران في أسبانيا

حسب قول أفري .

وبتلقائية ضغطت على ذراعه وهي تقول :

«أشكرك على الشوكولاته !»

«وأنا أشكرك على الدرس في التواضع.»

«ولكنني لم أحاول إعطائك درساً - إن بي عيوباً كثيرة ولا يمكن أن أجوؤ على

ذلك . وأول هذه العيوب أنني لا أستطيع الاختلاط بالناس وليس لي أصدقاء

كثيرون. يعتقد البعض أنني متعالية ولكنني لست كذلك. كل ما في الأمر أنني

أحب أن أخرج بمفردي لأنني عندما أخرج مع الفتيات الأخريات لا ينتهين من

الدوران في محلات الملابس والصيدليات.»

ضحك وقال :

«ألا تحبين الفرجة على محال الملابس والصيدليات؟»

«ليس كثيراً. هذا شيء سيء مني أليس كذلك ؟ ربما كان يجب أن أكون صبيّاً ؟»

«صبي ؟»

ضحك وضربها بأصبعه على خدها مداعباً .

«هل تظنين أن الصبيان يحظون بكل المتع ؟»

«نعم . وعندما تكون صبيّاً فلا هم إذا تصرفت بمفردك . أنا جبانة أيضاً - لقد

أخبرت أن عيوبي كثيرة.»

سكت لحظة ثم قال بجديّة :

«هل أنت خائفة منّي؟»

نظرت إليه بسرعة .

«لا تخافي مني يا ليجيا . وعدت جدتي أن أركاك - وأنا لا أخلف وعودي لها - لا أجزؤ على ذلك!»

بعد حوالي دقيقة وصل التاكسي الى المحطة فوضع روبرت قطعة رصاص في طوق بانكر ليركب في عربة الحارس . ثم ذهب ليشتري تذاكر القطار . وسارا على رصيف المحطة وكان روبرت يضحك من بانكر الذي سار مطأطأ الرأس .

وداعب بانكر ثم قال لليجيا :

«اتصلت بالسيدة وودز مديرة المنزل قبل أن أحضر لفندق تناغرا لتحضر لنا غداء عندما نصل الى هامستيد حيث أعيش.»

أوصلا بانكر الى عربة الحارس واشتريا الصحف والكتب ثم ركبا القطار . كانت ليجيا قلقة على المكان الذي ستقيم فيه . بالطبع لا ينوي روبرت أن تقيم في منزله - إنها لا تستطيع أن توافق على ذلك - ولكن روبرت طمأنها . إن مديرة منزله لها أخت تدعى السيدة بيرى ولديها بنسيون في سانت ماركس رايز وهو مكان قريب من منزله ويمكنها أن تقيم هناك .

«سيكون هذا مريحاً لأنني أستطيع توصيلك للمرح بسيارتي بدلا من متاعب المواصلات.»

كان القطار يخترق الحقول فانصرفت ليجيا الى كتابها وكانت قصة مثيرة استحوذت على انتباهها . ولكن الليلة القلقة التي قضتها في الفندق واهتزازات القطار جعلتها تستغرق في النوم . أيقظها روبرت بعد ساعتين لتتناول بعض الطعام وتشرب الشاي . تشاءت وقطعت ثم ابتسمت وقالت :

«كنت تعب - كم من الوقت ظلمت مستغرقة في النوم.»

«ساعتين كاملتين - ولكنك تبدين أحسن حالا الآن - ها هو الشاي وسندويتش السجق.»

«إنني أتوق بشدة لأيّ مشروب.»

شربت الشاي بلذّة ثم أتبعته بالسندويتش .

قال باقتضاب :

«ليجيا - هناك شيء أريد أن أتحدث فيه معك.»

نظرت اليه متسائلة

«فكرت في ذلك وأنا أراقبك وأنت نائمة . إنه يدور حول ذهابك لمقابلة فتون لاي . انت غير مضطرة لأن تقابليه - أنا أعرف أن هذه فرصة تتمناها الكثيرات بغض النظر عن مشاعرهن الشخصية . ولكن إذا كانت فكرة العمل معي كريهة بالنسبة اليك فأرجو أن تخبريني بذلك.»

نظرت الى الأرض وهي غير قادرة أن تفهم السبب وراء كلامه هذا - ظنّت أن الأمور قد استقرت وأن مخاوفها وشكوكها خفت منذ استقلا القطار من ديفون وابتعدا عن تشيز . وهي لا تريد إثارة المشاكل من جديد .

«لماذا تقول ذلك؟»

«لماذا؟»

قال بغضب :

«هل تريدان حقاً أن أخبرك لماذا؟»

«بالطبع.»

«ذكرت اسم أفري في نومك - هذا هو السبب . وأنا لست غيباً كما أنني لست فاسياً كالصخر . كان يجب ألا أ تدخل بالأمس - ولكن لم أكن أعلم الوضع بينك وبين أفري - كنت تبدين الفتاة المناسبة تماماً لدور «عاصفة»

«ماذا ستفعل الآن؟»

قالت بهدوء :

«نذهب الى لندن.»

«هل مازلت تريدان الذهاب؟»

«نعم - وقد وصلنا تقريبا - ولا يمكن إرجاع القطار أو الساعة وأنت تبدو مستعداً للمنازلة - وأنا متأكدة أنك تريد أن تحيّر.»

«نستطيع العودة وما عليك إلا أن تطلي ذلك.»

قالت بتحد :

«أنا أريد أن أذهب لمقابلة فنتون لاي بيتا أنت تتردد لا أنا»

قال وهو يضحك :

«إذا سنذهب»

ثم أشعل سيكارتة واسترخى في كرسية ثم وجد يد ليجيا وضغط عليها.
كانت لفنة رقيقة بشكل خاص. لم تسأل نفسها لماذا فعل ذلك ولكنها تقبلتها.
كان المطر مازال يسقط عندما وصلا إلى لندن وكانت الأرصفة تلمع خارج
محطة بادنغتون . كانت الأوتوبيسات تسير وهي تخوض في الماء. والأضواء
تحولت إلى أشكال غريبة بفعل المطر ودخل الغسق مبكراً بيتا سقط المطر على
السطوح كدخان رقيق.

«يا إلهي ! إنها لندن !»

وانطلق بهم التاكسي في زحمة المرور.

توقف التاكسي أمام منزل من الطوب الأحمر له سقف مثل قبة الساحرة أو على
الأقل كان هذا هو أول انطباع ليجيا .

كانت الاشجار العالية تحف بجانبى المدخل وكانت النوافذ الطويلة في
اطارات مقنطرة . ويظل الباب الأمامي سقف شكله غريب كالمظلة مستند على
أعمدة رفيعة.

كان تشيز هو المثل الكامل للأبنية القديمة الراسخة ولكن الوصف الذي قفز
الى ذهن ليجيا لهذا المنزل هو أنه غير تقليدي ومثير كما لو كان روبرت
أراد أن يحيط نفسه بجو المسرح في كل تفاصيل حياته... قال روبرت وهو
يدير المفتاح في الباب :

«حسناً يا ليجيا - هل يعجبك منزلي ؟»

«نعم»

قالت ذلك ببساطة ودخلت للبهو.

١٠ - موعد مع القدر

انبهرت ليجيا بردهة منزل روبرت ووقفت تنظر حولها بإعجاب واستمتع
برىء بكل ما ترى. ابتسم روبرت كأن اعتبرها طفلة.

كانت أرض الردهة من البلاط الصغير الأبيض والأسود وقد زُين بعضه
برسومات من الأزهار والبعض الآخر بمشاهد دقيقة ملونة عن الأساطير
الآغريقية. كانت أرضية فخمة مزينة متناسب مع المكتبة. وتم تحويل البهو
المستدير الى مكتبة.

وكانت الرفوف الممتلئة بالكتب ترتفع حتى السقف ، وقد تركت بها بعض
الفراغات لوضع بعض تحف للزينة ، كأواني السمك الملون وقشائيل صغيرة
لبعض شخصيات المسرح الشهيرة إلى غير ذلك من التحف الصغيرة.

ثم انتقلت للفرجة على مجموعة تحف زجاجية من القرن السابع عشر. كانت
هناك بعض الكؤوس البوهيمية من الياقوت والذهب. ومجموعة جميلة من
الأكواب الألمانية الكبيرة عليها بعض الرسومات. وكانت إحدى تلك الرسومات
مثل ساحرة شابة تمتطي مكتسة وشعرها الأسود يطير في الهواء وقد سقطت
ملابسها الحمراء بلا خجل عن أكتافها.

ضحكت ليجيا وهي تمسك بالكأس التي رسم عليها شكل امرأة ساحرة

وقالت :

«هل هذه صورتى أنا؟ لقد شبهتني بالساحرة عندما وجدتني تحت شجرة الغليق في المستنقعات. هل تذكر؟»

نظر روبرت من ورائها الى الكأس ثم قال ضاحكاً :
«أه... أظن أن هناك ملامح مشتركة».

وكان هناك في مواجهة الباب سلم ذو درابزين حديدي أبيض الطلاء يؤدي إلى غرف المعيشة والنوم... وكان المطبخ وملحقاته في خلفية المنزل ويتصل بالردهة بمر. وقد اختفى بانكر في هذا الممر ليبحث بدون شك عن طعامه من العظام.
سار روبرت الى الممر وصاح منادياً :

«يا وودز ! أين أنت ؟ نريد غذاءنا»

رد صوت أيرلندي من الممر :

«أوه... إنك نافذ الصبر كجامع إيجارات من دبلن .»

وبعد لحظة ظهرت سيدة صغيرة سمينة بيضاء الشعر وهي تمسح يديها في منشفتها.

فكرت ليجيا أن وودز أيرلندية مثل ميف . واعتراها شعور بالفرح الصباني - ابتسمت للسيدة وودز وقد اعتراها الحجل.

وقفت مدبرة المنزل وهي تتأملها بقوامها النحيل ومعطفها القديم والبسيرة المائلة على رأسها فصدمها مظهرها.

لم يكن غريباً على روبرت أن يعود الى المنزل مصحوباً بسيدة . قال :

«ياليجيا ... هذه السيدة وودز - إنها كثيرة الشكوى كالشيطان ولكنها طاهية ممتازة وإلا ما احتفظت بها».

«أنظر من يتكلم عن الشيطان ! إنك أكبر منافس له يا بني»
رد روبرت ضاحكاً :

«يا وودز ، ألا تقولين لي كلمة واحدة طيبة بعد كل هذا الغياب».

قالت بلهجتها الأيرلندية :

«نعم ، بعد أن تخبرني ماذا حدث للكلب العزيز وكيف فقد عينه، لقد تأملت كأنما قلبي انفطر بسكين وأنا أراه يدخل بعين واحدة. والآن أخبرني كيف حدث هذا ولماذا لم تعتن به جيداً».

قال روبرت مقلداً لهجتها الأيرلندية :

«ماري وودز يحزنني أن أسمع أنك تأملت بشدة كأنما قلبك انفطر بسكين»
انفجرت قائلة :

«والآن لا تراوغ - إن لي عليك حقاً - خدمتك ستين طويلة وتحملت كل متاعبك وقدمت الطعام لصديقاتك وأستحق الجحيم مأوى لي لكثرة ما كذبت عليهن وأخبرتهن أنك غير موجود بينما كنت جالساً هنا في هذا البيت».

أكدت على الكلمات الأخيرة بالتلويح بقبضة يدها مما ذكر ليجيا بوالدها ميف عندما كانت تتشاجر مع والدها، الأمر الذي جعلها تريد البكاء والضحك في الوقت نفسه.

قال روبرت وعينه تلمعان :

«إن لك لساناً مثل لسان كاترين .»

«هل هي واحدة من تلك الأنبيات الفارغات ؟ إن لك ذوقاً عجيبياً فيما يختص بالنساء يا روبرت تشيز . وإن كان ذوقك أفضل بالنسبة الى الكلاب .

وبمناسبة الكلاب - كيف أصيب كلبى العزيز؟»

قال روبرت :

«دخلت شوكة في عينه. وكانت الأنسة بلير ضيفة عند ابن عمي وخرجت للزهة سيراً على الأقدام فوجدته مصاباً ، فأخذته الى منزل تشيز ثم على الفور إلى الطبيب قبل أن يتلوث الجرح. ولحسن الحظ أنه استطاع إنقاذه اذ كان يمكن أن نفقه».

حدقت السيدة وودز في ليجيا وكلها فضول وقالت :

«الحمد لله»

أوضح روبرت :

«حضرت الأنسة بلير إلى لندن لتتدرب على دور في مسرحيتي الجديدة - إنها ممثلة».

نظرت بسرعة الى ليجيا :

«هل هي ممثلة ؟ إنها لا تبدو كذلك».

قال روبرت لليجيا :

«هذا إطرء لك لأن وودز تعتقد أن الممثلين والممثلات يطلون وجوههم ويتزينون من أجل الشيطان.»

قالت السيدة وودز بصراحة :

«إنها ليست مهنة تستحق أن أضع ابنتي فيها - لأنني لن أنام الليل من القلق عليها - هل تعرف لماذا ؟ لأن النساء والرجال عندما يختلطون بحرية كبيرة كما يفعل الممثلون والممثلات ، يعلمون كل شيء عن بعضهم البعض ، ويؤدي رفع الكلفة بينهم إلى أن يكرهوا القوانين التي تجعل من الحب لعبة نظيفة. النساء يجب أن يكن محترمات ومحشيات وهذا لا يمكن طالما يتفرج عليهن الرجال بلباسهن الرقيقة.»

قال روبرت وهو يوجه إليها شبه اتهام:

«أيتها الفيلسوفة العجوز!»

«أنا لست فيلسوفة ولكن أختي عملت في هذه المهنة وانتهت مع رجل - إذا كان يمكن أن نسميه كذلك - لا يعمل إلا عندما يريد ومن حسن حظها أنه توفي والآن يحسن أن أعد لكم الغداء - لا بد انكما جاتعان.»

ذهبت وبقي روبرت جالساً على الأريكة السوداء يدخلن سيكارتته ثم ضحك بهدوء وقال :

«وودز شخصية نادرة - كان يجب أن أتوقع أنها ستصدم عندما ترى عين بانكر.»

ثم نظر الى عيني ليجيا وقال :

«من حسن الحظ أنك خرجت للنزهة ذلك المساء.»

«نعم أظن ذلك.»

لاحظت أنه توقف عند كلمة النزهة كأنه يعلم أنه كان السبب في خروجها ذلك الليل الغائم بعدما صممت على ترك تشيز إلى الأبد.

تساءلت ماذا كان سيحدث لو أن بانكر لم يصب ولم تعد به الى تشيز؟ وأين كانت ستكون الآن ؟

بدا كأن روبرت قرأ أفكارها:

«نعم إنها لعبة غريبة ، أليس كذلك يا ليجيا ؟ لو فكرنا في كل الاحتمالات في

حياتنا.»

ابتسم بشيء من الحزن ثم وضع ذراعه على كتفها وسار بها الى السلم وهو يسأل :

«هل ستجد إجابات لكل تساؤلاتنا يا ليجيا ، في يوم من الأيام، أم سنبقى في الظلام.»

أجابت ليجيا بسرعة:

«ليس في الظلام!»

ضغط على كتفها فشعرت أنه يكره الظلام هو أيضاً.

صعدا السلم وعندما وصلا إلى غرفة الطعام قال :

«أظن يا ليجيا أنني سأستمتع بك كابنة على المسرح.»

خلع عنها قبعاتها وألقى بها على كرسي ووقف ينظر إليها ويفحصها ، كما يفحص أحد التحف التي يقتنيها.

«أظن أننا نبدو مقتنعين معا ، نحن الاثنين خلقنا ببشرة داكنة ولسنا جميلين على الإطلاق.»

ثم ضحك قائلاً :

«لا بد أنك كنت طفلة مضحكة جداً.»

«نعم وكان شعري كذيل الحصان. وكان أبي يكره ذيل الحصان ، وفي أحد الأيام قصه لي وعندما عادت أُمي من السوق طار صوابها وأخذت تطارده برغيف خبز طويل.»

فجأة ارتعش فم ليجيا وانهمرت دموعها فقد هزتها هذه الذكريات القديمة الحزينة المضحكة التي كادت تنساها... قالت وهي تبتكي :

«إنني أفتقدها... إنني أريدها - لا أستطيع أن أحمل فقدانها معا.»

«أسكتي - لا تبتكي.»

جذبها إليه برفق شديد وأخذ يؤاسيها:

«لديك ذكريات جميلة عنها - هذه الذكريات كنز حقيقي . لديك ضحكاتها وحبها وشجاعتها - ألا تعلمين أن هناك من هو مستعد لأن يعطي حياته في

مقابل أن يمتلك مثل هذه التركة؟»

جلست مستندة إليه - لم يتكلم بهذه الطريقة من قبل ، بهذا الجذ والاخلاص ،
كاشفاً عما بدخيلة نفسه - كانت ذكرياته هو عن اثنين يتذكران وجوده من وقت
آخر ويزوران في المدرسة أو في تشيز - وكانت تركته الاضطراب وعدم
الرضا والمأساة .

«لا تيكى لأن وودز ستظن أنني كنت أضايقك .»

ذهب روبرت الى المائدة وأحضر كأسين من الشراب وعندما عاد كان على
وجهه ذلك القناع الساخر مرة أخرى . ولكنها أدركت الآن حقيقة هذا القناع
وشعرت أن الدموع التي ذرفت كانت أيضاً من أجل هذا الصبي الذي لم
يستطع البكاء عندما مات والداه والذي لم يبك لأنه كان خائفاً .
ترى في تشيز ورأى نفسه يصبح أكبر شبيهاً بصورة زوفاني كل يوم .
وكان يشك في كل تصرف يفعله منذ أخيرته جدته أن والديه غرقا . واضطرت أن
تخبره بالحقيقة . وأصبح انتاؤه الى عائلة تشيز فكرة مسيطرة عليه تقض
مضجعه ومع ذلك كانت ملاحظته وهو يقف أمامها الآن تبين أنه ورث دم أمه
الأسباني أيضاً .

ألم يخطر بباله أنه يشبه أمه أكثر مما يشبه والده أو آدم تشيز ؟

مساء الأربعاء أخبرها روبرت أنه رتب موعداً للمقابلة فنتون لاي في
اليوم التالي فاستقلت الأوتوبيس وذهبت في الصباح واشترت فستاناً وزوج
جوارب بتسعة جنيهاً وفي طريقها للعودة كان الخوف يملأ قلبها من المقابلة
المنتظرة . قد يرى فنتون لاي أنها غير مناسبة على الإطلاق للدور الذي ستقوم
به . لأن ليس لديها أي خبرة في المسارح الكبرى وكان همه أن يكون كل
الممثلين على أعلى درجة من الاجادة .

عادت الى منزل السيدة بيرى ، ولم تتكلم كثيراً أثناء تناول الغداء .
قدرت السيدة بيرى شعورها فقد عملت من قبل في المسرح ولكنها اقترحت
عليها أن تستلقي قليلاً في السرير قبل أن تذهب للمقابلة وقالت لها :
«ستشعرين بالانتعاش كالوردة وستكونين على أتم استعداد عندما يأتي السيد
تشيز .»

وقفت ليجيا تنظر الى نفسها في المرآة . لم تعجبها صورتها - قالت :

«لا أبدؤ أبداً كوردة ، أظن أن شكلي ليس جميلاً ، إن كلي عظام وظلال - لا
أعرف لماذا لا أشبه والدتي أو والدي . كان الاثنان ملفتين للنظر .»
هزت كتفها وسارت بعيداً عن المرأة .

قالت لها السيدة بيرى :

«لا تقلقي . إن لك وجهاً أسراً ، وهذه هي الحقيقة .»

«أسر ؟»

ضحكت ليجيا كثيراً وهي تتبع السيدة بيرى ، خارج المطبخ .
«حسناً أرجو أن يظن فنتون لاي الشيء نفسه - لأنني لا أعرف ماذا أفعل إذا
لم أحصل على هذا العمل .»

«أوه ! دعك من هذا الكلام ! السيد تشيز له اتصالات كثيرة وسيجد لك
عملاً آخر .»

قالت ليجيا :

«لا يمكن أن أبقى عبئاً عليه ياسيدة بيرى وأتدخل في حياته . إنه شخص مهم
في عالم المسرح وله أصدقاء ذوو مراكز مرموقة - لم أكن أعرف ذلك حتى قابلت
بعضهم - كنت أشعر وأنا أجلس بينهم أنني بدائية جداً وأني من مملات الدرجة
الثانية .»

قالت السيدة بيرى بشجاعة :

«النجوم انطلقوا كممثلين من الدرجة الثانية . أما بالنسبة الى اهمية مراكز
أصدقاء السيد تشيز - فكلها مظاهر يا عزيزتي .»

«ولكنني وجدتهم ممتازين وأيضاً مخيفين .»

«وهل السيد تشيز مخيف أيضاً الآن ؟ بدا لي دائماً أنه ينظر للحياة ولأصدقائه
بسخرية ، أم هل أنا مخبطة؟»

«بسخرية ؟ من الجائز ولكنها سخرية مريرة .»

«إذا أنت تعتقدين أنه غير سعيد ؟ لقد سمعت ذلك من مالي . إنها تقول إنه
يحتاج الى زوجة - ولكنني لا أستطيع أن أتصور مالي وهي تتلقى الأوامر من
واحدة من تلك النساء اللواتي توضع صورهن في المجلات . والآن أعطني هذه
المنشفة واذهبي لتستريحين - متى سيحضر السيد تشيز؟»

«حوالي الخامسة ، ولكنني غير محتاجة للراحة يا سيدة بيرى .
«الراحة لن تضرك - استريحى حتى الرابعة - ثم سأحضر لمساعدتك في ارتداء
ملابسك.»

«حسناً سأذهب.»

سارت ليجيا الى الباب ثم استدارت وابتسمت قائلة :
«إنك طيبة جداً يا سيدة بيرى وأنا أحب هجعتك الأيرلندية لأنها تذكرنى
بوالدتي.»

قالت السيدة بيرى بسرور :

«هيا اذهبي ! إنك مداهنة كما أن عينيك أيرلنديتان صميمتان!»
كانت قد جاوزت الخامسة عندما دق جرس الباب . وذهبت ليجيا التي
كانت قد ليست معطفها الى الباب لتفتحه. وابتسمت لروبرت :
«أهلاً ! بدأت أظن أنك لن تأتى.»
«ليجيا...»

توقف في الردهة ولاحظت الوجوم على وجهه فذهبت ابتسامتها.

«ما الخير ! إنك تبدو مشغولاً وقلقاً.»

«اتصل آفري بى ، أزمة قلبية أصابت جدتي وهو يريدني أن أذهب الى تشيز
بأسرع ما يمكن.»

اغلق الباب خلفه ورأت وجهه المتغضن وقد بدت التجاعيد واضحة حول
عينيه.

«طلب مني آفري أيضاً أن أحضرك معي.»

قالت وهي مضطربة :

«أنا ؟ لماذا يا روبرت ؟»

«قال إن جدتي تطلبك طوال الوقت.»

حدث هرج ومرج في المنزل فقد هرعت ليجيا لتضع بعض الملابس في
حقيبتها. واتصل روبرت بمحطة بادنغتون ثم طلب سيارة بينما أعدت لها
السيدة بيرى بعض الساندويتشات وترموساً من شاي ساخن.
قال روبرت عندما أحضرت ليجيا حقيبتها :

«القطار ينطلق الساعة السادسة وعشر دقائق والساعة الآن تعلن الخامسة
وعشرين دقيقة - إذا حضر التاكسي بسرعة فسنلحق بالقطار.»

ضغطت على يده بدون خجل وشعرت أنها أنضج منه في هذه اللحظة. بدت
الرحلة طويلة رغم أن القطار كان من النوع السريع كما أن الجو كان بارداً ولم
تعترض ليجيا عندما جذبها داخل طيات معطفه. ووضع ذراعه حولها. قال :
«أنا سعيد لأنك وافقت على أن تأتى معي - لو أنني كنت بمفردي لأصبحت الرحلة
لعينة.»

«أنت تحبها كل الحب ، أليس كذلك ؟»

«نعم إنني أحبها - إنها الحب الوحيد الحقيقي والمخلص في حياتي . لقد كانت
والدي وأصدقائي ومرشدتي - وإذا كانت هذه هي النهاية - فأنا سأفتقدها
كثيراً.»

«هل ألتح آفري إلى ذلك ؟»

«نعم - فهي مريضة بالسكري وعمرها يزيد على الثمانين.»

«أظن أنها لم تكن على مايرام عندما ودعتها يوم الجمعة الماضي.»

لمس روبرت فرس البحر على فستان ليجيا الأخضر الجديد وقال :
«أعطتك هذا أليس كذلك ؟ إنه جميل وكذلك فستانك الجديد - هل اشتريته
خصيصاً لزيارة فتون لاي ؟»

هزت رأسها بالإنجاب .

«هل أصبت بخيبة أمل لعدم ذهابنا ؟»

«لا يا روبرت.»

كان هذا صحيحاً فقد نسيت كل شيء عن ذلك الموعد وعن المسرحية
وتضاءلت أهمية ذلك بالنسبة الى المشكلة التي واجهت روبرت الآن. إن جدته
لها مكان في حياته لا يمكن لأحد أن يملأه... لا جرداً ولا أي من تلك الفتيات
الجميلات اللواتي يعرفهن.

وصلا تشيز بعد منتصف الليل - فتح لها آفري - الذي كان في انتظارها
على الباب - قبل أن يذقاً الجرس - سأله روبرت على الفور
«كيف حال جدتي ؟»

«إنها متأسفة يا بوب - هذا كل ما أستطيع أن أقوله».

دخل الجميع غرفة الاستقبال حيث كانت النار تشتعل في المدفأة. سارت ليجيا إلى المدفأة ووقفت تدفئ يديها بينما تكلم روبرت وأفري عن جدتها. كان من الغريب أن تأتي إلى هنا مرة أخرى. ظنت أنها ستشعر بأنها عادت إلى منزلها ولكنها بدلا من ذلك شعرت لحيوتها - أن تشيز أصبح مجرد منزل كبير فخم ومعتم حيث عاشت بعض الوقت.

قال أفري :

«لا بد أنكما جاتعان - أعدت إلين بعض العشاء وسأجعلها تحضره».

جذب الجرس بجانب المدفأة ولأول مرة نظر إلى ليجيا مباشرة:

«حسناً فعلت إذ حضرت ، يبدو أن شيئاً ما يشغل جدتي وهي تريد أن تخبرك به شخصياً، وإلا لما طلبت من بوب أن يرجوك أن تحضري - أرجو ألا تكون الرحلة أتعبتك».

«لا إني بخير - أشكرك».

تكلم بطريقة رسمية أخرجتها - فتظرت بعيداً وهي تخلع قبعتها وتفك حزام معطفها. أشعل روبرت سيجارة وأخذ يتأمل أفري وهو يقترب من ليجيا ليأخذ معطف المطر منها. أكسبها الفستان الأخضر الجديد رشاقة وليونة. وبدت فجأة كامرأة ناضجة.

أحضرت الطاهية العشاء وبعدها دخلت جردا . كانت تلبس حذاء خفيفاً وروبا طويلا من الحرير - نظرت إليها ليجيا باستغراب للحظة فقد كان هناك شيء مختلف في مظهرها.

جاءت مباشرة إلى المدفأة وعيناها مثبتتان على روبرت :

«ظننت أن هذه سيارتك رغم أنني لم أنتظر وصولك قبل الغد».

نظر إليها بجفاء:

«الغد! جدتي مريضة جداً يا جردا ومن الجائز أنها تحتضر، هل تظنين أنني كنت أستطيع الانتظار إلى غد؟»

تتمت :

«أوه لقد أخطأت ! ولكني بالطبع متأثرة لمرض جدتك . لاشك أن مرضها أفسد

كل خططك حول مسرحيتك الجديدة، أليس كذلك يا روبرت ؟»

كان أفري يسكب القهوة فنظر إليها بحدة وقال :

«جردا هل تسمحين أن نترك كل المسائل الشخصية الآن ؟ في المنزل مريضة

وإذا كنت لا تحترمين المرضى فمن الأفضل أن تذهبي إلى النوم».

هزت كتفها بشيء من الوقاحة الرقيقة.

«هل نستطيع الكلام ؟ هل لي أن أسأل روبرت كيف تبدو لندن».

رد روبرت الذي كان يبدو متعباً:

«لندن تبدو في أحسن حال يا جردا».

كان يتمشى بعصبية ثم سأل أفري :

«متى أستطيع أن أرى جدتي؟»

«ليس الآن يجب أن تنام بعض الوقت بدون إزعاج».

«هل لديها ممرضة؟»

«طبعاً».

«من المؤلم ألا يستطيع المرء أن يفعل شيئاً».

قال أفري :

«اقترح أن نجلس ونشرب فنجاناً من القهوة - إننا نفعل كل ماهو ضروري

لمجدتنا ولن يجدي الانفعال شيئاً».

قال روبرت بعد لحظة :

«لا تسكب لي قهوة سأخذ شراباً».

ذهب لدولاب المشروبات وأحضر لنفسه كأساً كبيرة وشربها في بضع جرعات سريعة وعصبية. وعندما لاحظ أن ليجيا تراقبه قطب جبينه قليلاً. فجأة انفتح الباب ونادت الممرضة على أفري. شعرت ليجيا بأن قلبها قد توقف. وخرج أفري من الغرفة. قالت جردا وهي تنفض سيجارتها:

«هذه الانذارات توالى طوال اليوم - يبدو أن الممرضة من النوع العصبي».

ولكن روبرت بدا وكأنه لم يسمعها - كان يحدق في الباب الذي خرج منه

أفري . وفجأة قامت ليجيا وذهبت إليه وعندما وضعت يدها في ذراعه قال

لها:

«إنها تموت ، أنا أشعر بذلك.»

«يا عزيزي ...»

«أنا أشعر بذلك يا ليجيا - وعندما تموت لن يكون لي أحد يسأل عني.»

١١ - وطار الكروان في السماء

عندما ذهبت ليجيا الى فراشها كان حفيف أشجار الصنوبر يبدو قلقاً ومنخفضاً. لقد أعطيت غرفتها القديمة الفسيحة لكنها لم تستطع النوم لفترة طويلة. كانت تسمع صوت الأشجار وتذكر وجه روبرت وشعوره بالراحة بالأمس عندما عاد أفري الى غرفة الاستقبال وأخبره أن حالة جدته لم تتدهور كما ظنوا. كانت قد استيقظت وطلبت بشيء من حديثها المعهودة أن ترى حفيدها. فاعتقدت الممرضة أنها تقصد أفري .

وسمح أفري لروبرت بالدخول ليضع دقائق شعر بعدها روبرت بالراحة. تناول بعض الطعام ولكن الحديث أصبح رسمياً بعض الشيء وشعر الجميع ببعض الارتباك . وعندما اقترح أفري أن يذهب الجميع الى النوم شعرت ليجيا بالراحة لأنها ستخرج من جو الغرفة المتوتر. أما أفري ففقد ليلته على أريكة في حجرة جدته ليكون موجوداً في حالة حدوث أي طارئ.

وعندما خلعت ليجيا ملابسها لتنام كانت ترتعش وهي تشعر بتعب بدني وذهني. لكنها قبل أن تنام ركعت بجانب سريرها وقامت بصلاة من أجل السيدة تشاريز - كانت روحها الشجاعة القوية تنسل من جسمها المتعب ولم تطلب ليجيا من الله أن يبقيها بل أن يعطيها السلام والراحة.

عندما نزلت ليجيا في الصباح كانت جرداً أول من قابلها. وكانت تجلس في الصلاة وتلبس فستاناً أزرق ولم ترد على تحية ليجيا لها بل قالت :

«أريد أن أتحدث إليك».

دفعت ليجيا يديها في جيوبها ووقفتا تواجهان بعضهما كقطعتين غاضبتين.
«أريد أن أعرف لماذا عدت بحق الشيطان. ما الذي تبحثين عنه الآن. هل تظنين
أن السيدة العجوز ستترك لك شيئاً في وصيتها؟»

نزل السؤال على ليجيا كضربات صغيرة. وردت ببرود:
«لن تفعل ذلك. عدت لأن السيدة تشيز طلبت أن تراني».

ضاحت عينا جردا:

«طلبت؟ لماذا تطلب أن تراك؟»

«لا أعلم».

صاحت جردا:

«أوه - كفى عن الرياء. خدعت الجميع هنا بادعائك البراءة... وتحاولت بالطريقة
نفسها على روبرت للحصول على ذلك الدور في المسرحية. وجعلته يطارحك
الغرام ثم ادّعت أنه جرح مشارك الرقيقة البريئة».
أنكرت ليجيا بحماسة:

«لم يطارحني روبرت الغرام أبداً! عندما ذهبت الى الكوخ ذلك اليوم لم تفعل
أكثر من تناول وجبة لطيفة وكلام عن المسرح وهذا ما أعاد ذاكرتي إلي».
ردت جردا بصوت عال:

«قال أفري إن ذاكرتك تعود فقط إذا مررت بالتجربة التي أدت إلى فقدانها -
وذلك المدير طارحك الغرام».

ارتفع صوت روبرت وهوأت من غرفة جدته وقد بدا عليه التعب وعدم
النوم:

«يا جردا إن اهتمامك الدائم بكلّ أموري الغرامية بدأ يضايقتني - صباح الخير
باليجيا لقد دخلت لأرى جدتي».

«كيف حالها، هل هي أحسن؟»

«إنها مذهشة».

ابتسم قليلاً فزال بعض التوتر منه واستمر يقول:

«خلعت المرضة خاتمها الياقوت الكبير لأنه قد يكون ثقيلاً عليها. لم أرجدتي

بدون هذا الخاتم. إنها تلبسه منذ كنا أطفالاً - لقد وبخت جدتي المرضة بكلّ
سرعة يديها القديمة...»

عضّ على شفته وتمرر يده في شعره وقال:
«أريد فنجاناً من القهوة».

ثم دخل الى غرفة الجلوس:

هرعت جردا وراءه وأمسكت بذراعه:

«روبرت! أنا لم أقصد حقيقة ماقلت - إنك تدفعني لذلك. إنك لا تجعلني أفهم
بالضبط ماذا تريد مني - إنني جميلة - والرجال الآخرون يروني كذلك!»

«أرجوك يا جردا! أنا متعب وأريد فنجاناً من القهوة».

دفع يدها عنه وذهب الى المائدة وأخذ إبريق القهوة.

وقفت ليجيا مترددة في المدخل - فرفع إبريق القهوة بطريقة ساخرة ودعاها
لأن تشرب القهوة معه ثم أضاف:

«إلا إذا كنت تفضلين الشاي».

سألت فجأة:

«ماذا تفعل يا روبرت هل أنت تتخلص مني؟ ألا تظن أن الشيء المذهب الذي
يجب أن تفعله هو أن تخبرني أنني أضيع وقتي؟»

كان روبرت متكبناً على المائدة يحرك قهوته فنظر إليها بحدّة:

«من الجائز ولكني لا أظن أنك كنت تريدين حبي يا جردا - أما العلاقة المجردة
فهي لا تعني الكثير - إن المرء يتعلم ذلك عندما يتقدم في السن - على الأقل أنا

تعلمت ذلك».

ردّت قائلة:

«إنك تتكلم كما يحدث في الروايات اللعينة - أظن أنني أعرف حقيقتك الآن -
أظن أنك لا تتحمس وتصحو إلا أمام الأضواء، وعندما تنطفئ - تنطفئ أنت

أيضاً».

كانت في عينيها نظرة إحباط جامدة.

«روبرت تشيز - العاشق الكبير! عنوان جذّاب في الاعلانات أما في الحقيقة فإن
النساء لا يعنين شيئاً في رأيك. إنهن جمهور جيد - هذا كل ما في الأمر».

وافق على كل ذلك :

«نعم يا جردا هذا كل ما في الأمر. وحاولت أن أقول لك ذلك عدة مرات ولكنك لم تستمع إلي».

أشارت جردا إلى ليجيا :
«هل تعلم ذلك ممثلتنا الصغيرة؟»

قال روبرت :

«أظن أنها تسمع ما نقول».

وعندما نظرت إليه ليجيا هز كتفيه وكأنه يقول - «هذا أنا» ولكنها لم تكن تعرف أن زيارات جردا للكوخ ، كانت بريئة وبدت الحيرة في عينيها.

قطب روبرت جبينه لذلك ، فنظرت بعيداً لأنها اكتشفت أنه يستطيع قراءة أفكارها ولم تكن تريد أن يعرف أنها صدقت إيماءات جردا . هذا سيضايقه وهي لا تحب أن تضايقه . إنه يشعر بالاعتزاز بكوخه وسيشعر بضيق إذا علم أنها ظنت أنه يستعمل الكوخ في علاقاته الغرامية .

قالت جردا وهي تنفض سيكارتها:

«أرجو أن تعني ماقلت من أنك يجب الوحدة. وأرجو أن تتمتع بوحدةك وألا تتمنى الموت عندما تصفر الريح في المدخنة وينقر المطر على النافذة ولا تجد أحداً بجانبك يؤنسك».

رد قائلاً :

«وأنا أيضاً أرجو ذلك».

إنجبه إلى باب الشرفة ونظر منه إلى أوراق الشجر المتطايرة.

قالت جردا :

«من أي طينة أنت؟»

ضحك قائلاً :

«أوه، أنا لست بدون شعور يا جردا ، قضينا أوقاتاً لطيفة ومرحة معا ولن أنساها، ولكن الأمر كان سيختلف لو أردت قلبي ، غير أنك قلت أن لا قلب لي . وأنا تعبت من هذه المتع السريعة وأفضل عليها ليالي الوحيدة والريح التي تهمس في أذني».

أشعل سيكارتته وخرج إلى الشرفة ثم نزل السلم وانصرف مستعجلاً.

كان اليوم ثقيلًا لشعور الانتظار السائد - وفي النهاية لم تستطع ليجيا تحمل هذا الجو الثقيل فأخذت معطف المطر ونزلت إلى الحديقة. تحدثت بعض الوقت مع تاجر إلا أن الرجل العجوز كان في غاية الانقباض لمرض السيدة تشيز فتركته وذهبت إلى الجدول المتعرج بأسياكه الملونة. كانت السماء رمادية وحزينة فجلست على حافة الجدول وهي تراقب الأسماك.

فكرت كم هو محزن ألا تعبر السيدة تشيز ثانية الجسر الحجري لتذهب إلى حديقة الأعشاب التي تحبها، أو تقف بجانب أشجار الليمون وتذكر ابنتها الذي كان يحب فطائر الليمون، ابنتها الذي بدد أمله فيه بعد أن أصبح رجلاً... وبعد قليل عادت إلى المنزل.

كانت وجبة الغداء التي تناولوها الساعة الثانية غريبة. لأن روبرت لم يكن قد عاد بعد ، وفضلت جردا تناول طعامها في غرفتها. لذلك فضلت ليجيا وأفري تناول القهوة بجانب المدفأة في الردهة. شعرت ليجيا شيئاً فشيئاً أن التكلف بينها وبين أفري قد زال.

«هل تريد من مزيداً من القهوة؟»

وعندما هزت رأسها بالنفي أتى وجلس بجانبها.

«أنا سعيد أنك عدت يا ليجيا حتى في هذه الظروف الحزينة».

كانت تبدو في ضوء المدفأة أكثر رقة - قالت :

«هل ستشفي جدتك؟»

هز رأسه بالنفي .

«أمامها أسبوع على الأكثر، لم أخير بوب بذلك».

قالت ليجيا بهدوء:

«أظن أنه عرف ذلك . فعندما يجب الإنسان شخصاً آخر يعمق فإن جزءاً من هذا الشخص يكون بداخله . وعندما يبدأ هذا الشخص في الموت يموت أيضاً هذا الجزء الذي بداخله».

همس وهو يتحسس شعرها برقة ثم يسحب يده :

«يا ليجيا الصغيرة - كيف لك أن تعرفي ذلك؟»

أجاب :

«عرفت عندما كان أبي سيموت - وهو أفسى شعور بالوحدة ، ولا يستطيع أحد أن يساعدك - يجب أن يختلي المرء بنفسه لفترة وهذا ما يفعله روبرت الآن، المرء يستجمع شجاعته ليواجه حزنه . إنه نوع من الحج إلى الماضي وإلى أرض الذكرى.

خلق آفري فيها :

«يافتاتي العزيزة ! إنك تتكلمين بلسان الكبار - إنني لا أتعرف عليك !»

قالت :

«انا لم أتغير».

ولكن الدم صعد الى وجهها فنظرت بعيداً . وأمسك بذقنها وجذب وجهها ناحيته وفحصه جيداً ثم قال :
«لقد كنت محطناً ، أنت لست ليديا الصغيرة ، أصبحت امرأة فجأة . من الواضح أنك...»

قالت المريضة :

«أسفة يادكتور ولكن السيدة تشيز استيقظت وهي تطلب رؤية السيدة الصغيرة».

قال آفري :

«انتظري هنا سأذهب لحظة لأراها».

راقبتها ليديا . آفري والمريضة وهما يدخلان الى السيدة تشيز . أخذ قلبها يخفق بعنف وبدأت لحظة الانتظار ساعات . أخيراً ظهر آفري في المدخل فذهبت إليه . ودخلا الغرفة الكبيرة المعتمة المعبأة برائحة الأدوية . قال آفري للمريضة :

«يمكنك أن تتركينا قليلاً».

خرجت من الغرفة ، فركعت ليديا بجانب سرير السيدة تشيز . كانت حركة تكريم وانتظار جعلت السيدة تشيز تبتسم ثم تقول :

«اهلا يابنتي - أرى أنك مستعدة للانصات بصبر الى سيدة عجوز متعبة».

«نعم».

«وانت تتعجبين !»

تعلقت يد السيدة العجوز بيد ليديا - ولعت عينها السوداوان المتعبتان بشيء من قوة الشخصية والمرح المعهودين لديها قم قالت :
«عشت طويلاً واحتفظت بأسرار كثيرة ولكني سأسمح لنفسني أن أكشف عن أحدها».

همست ليديا :

«إلى أنا ؟»

هزت السيدة تشيز رأسها بالانجباب وضحكت قليلاً ثم نظرت الى آفري الذي كان يقف بجانب السرير بوجهه الأشقر الجاد وقالت له :
«أنت يابني ولد طيب ، وفيك كل الصفات الطيبة في عائلة تشيز ولكن الحب مسافر غريب يحلّ أبناً يشاء في رحلة الحياة . لقد ارتكبت خطأ في شبابي وفضلت - بعد روية وتفكير - الأمن والاستقرار وتركت الحب يغفل من حياتي كالسراب ، وعندما يختفي ذلك النور الحقيقي الغامض ، يصبح كل شيء بعد ذلك زائفاً . لذلك إذا شعرت يا آفري أنني غير حكيمة فيما سأقوله فهل ستؤيدني بالرغم من ذلك ؟»

«بالطبع يا جديتي».

ولكن وجهه كان مضطرباً بصيانية ونظر بعجز إلى ليديا . ولكنها لم تكن متنبهة له وكانت عينها مشبتتين على جدته وقد غشيتها غلالة من الخوف.

قالت السيدة تشيز :

«ليديا ، هل استغربت عندما حضر إليّ روبرت يوم الجمعة الماضي وأخبرني أنه يريدك أن تمثلي معه في مسرحيته الجديدة فلم أعترض على ذلك - هل تعجبت ؟»

اعترفت ليديا :

«قليلاً ، ولكنه أخبرني في القطار أنه وعدك أن يهتم بي».

هزت السيدة تشيز رأسها وبدأت تلتقط أنفاسها بصعوبة وعندما حاول آفري أن يذهب إليها أشارت له أن يبقى في مكانه.

«ما سأقوله لن يستغرق طويلاً ، ولكني لن أستريح إلا عندما أقوله».

بللت شفتيها وشعرت ليجيا بأصابعها القلقة - ثم استمرت :
«نعم وعدني وأنا أعلم أنه سيحافظ على وعده. وعندما سألته عن السبب الذي
أراد من أجله أن يصطحبك إلى لندن ، أجاب بأنه لا يستطيع أن يراك تخرجين إلى
هذا العالم وتحارين بمفردك. عندما يقول الرجل ذلك هو ليس شيئاً أو قاسياً أليس
كذلك. وعندما يقول ذلك أظن أن هذا يعني أنه يجب.»

ارتخت أصابع السيدة تشيز وسقطت على الملاة:
«أفري رجل طيب يا عزيزتي ولكن لديه عمله. عمله هو حبه الأول حبه الأعظم.
ولكنك الحب الوحيد بالنسبة الى روبرت.»

سقطت أهداب ليجيا السوداء على عينيها وكأنها أرادت أن تخفي تعبيرها
في لحظة الإلهام تلك وبقيت ساكنة وهي على ركبتيها بجانب السرير. وهمت
السيدة تشيز:

«ألم تشعرى أبداً أنه يحبك يا ليجيا ؟ ألم تكن هناك لحظات حاول فيها أن
يصل إليك ، أن يحطم الحواجز بينكما، الحواجز التي وضعها هو عندما أملك في
البداية؟ الحواجز التي وضعها أمامه آدم تشيز ووالده؟ ألم تشعرى أبداً أنه
يمكن أن يكون أرق عاشق إذا وجد الفتاة المناسبة التي تقابله في منتصف
الطريق، بلا خوف ولا أفكار مسبقة ولا شيء إلا الحب في قلبها؟ إنك تحبينه أليس
كذلك ؟ أحببته في الكوخ - وأحببته عندما وافقت على الذهاب معه إلى لندن ،
أحببته عندما تركت أفري . أليس كذلك؟»

قالت برقة وبصوت يكاد يكون غير مسموع:

«نعم.»

ولكن عندما سمعها أفري أطبقت يدها بشدة على العمود عند قدم السرير
حتى ألتاه.

قالت لها السيدة تشيز :

«إذا أذهبي إليه أخيراً، لاتدعي السعادة تغفل من حياتكما بسبب الكبرياء، يجب
أن تفعل ذلك يا عزيزتي لأنه يشعر أن ليس من حقه أن يحدثك عن الحب.»

«هل قال ذلك؟»

«نعم.»

قامت ليجيا وهي تشعر أن قلبها وعقلها يطيران من الفرح. لقد انطلق حبها
كما كانت تمنى دائماً كعصفور يطير إلى من يجب. قالت:
«أشكرك لاخباري أشكركما...»

ثم خرجت من الغرفة وبسرعة سحبت معطف المطر من الردهة وانطلقت خارجة
من أسوار تشيز غاصت السيدة تشيز بين الوسائد. ويرغم أنها كانت متعبة
لكنها كانت سعيدة. ثم قالت :

«كان يجب أن أقول كل شيء - لم يكن باستطاعتي الموت في سلام طالما لم
أطمئن إلى راحة روبرت وسلامه.»
سأها أفري :

«وماذا عن راحتي وسلامي أنا؟»

«لديك عملك يابني - إنه اهتمامك الأول. بلا شك كنت ستكون زوجاً طيباً
ومستقراً لها. ولكن قلبها سيكون متعلقاً دائماً بروبرت ولن تعرف هي السعادة
الحقيقية. وكذلك هو لن يعرف السلام أو الراحة طالما بقيا بعيدين، إنها تكلمه،
إنها راحة النفس التي طلبتها من أجله. أظن أنني أعلم الآن أن الرب هو الذي
أرسلها.»

وقف أفري وهو ينظر إلى الباب - ثم قال متأملاً :

«لقد ركضت كأنها تعرف بالضبط أين ستجده.»

«نعم إنها تعرف ، ستتبع قلبها مباشرة إلى حيث ينتظرها.»

كانت شجرة العليق تزدهر بالشمر في ضوء الغروب الباهت وكان روبرت يقف
هناك وهو يدخن ، ونظر إلى المستنقعات وقد تجمعت كل وحدة البراري والسماء
المعتمة فيه - وطأت ليجيا بعض الفروع الجافة فأحدثت صوت فرقة -
استدار روبرت وحملق فيها. بدا وكأنه لا يصدق أنها حقاً هي ، حتى
ابتسمت.

«أهلاً ! لقد جئت لأنثى السحر تحت شجرتي.»

قال «جدة :

«جدتي ؟ هل هي بخير؟»

قالت وقد أتت لتقف بجانبه تحت الشجرة:

«إنها بخير وكنت أتكلم معها - إن الجو هادئ هنا».

راقب الهواء يتخلل شعرها. اهتز عصب في جانب فمه وابتعد قليلاً عنها.
سألته :

«روبرت ! هل تظن أن الفتاة يجب أن تكون لها كبريلوها»

نظر إليها نظرة جانبية وابتسم ولكنه بدا وقد قلقت حيرة ثم قال :
«ما الذي تتكلمين عنه - أيتها الساحرة السوداء الشعر»
«الكبرياء»

«أي نوع من الكبرياء - الكبرياء في مظهرك أم في الأشياء التي تفعلينها ..»
هزت رأسها بالتفني - وكان قلبها يخفق بشدة حتى كاد يتوقف.

«روبرت - إذا قلت لك إنني أحبك بكل قلبي الذي يكاد يخفقني في هذه اللحظة - هل يضايقك أن أكون قد تخليت عن كبريائي؟»
وقف ساكناً تماماً - بدون أن يبتسم - وقف ينظر أمامه كرجل أعمى.
«روبرت ..»

لمست ذراعه فابتعد بحدة عنها - ثم قال :

«أيتها المغفلة الصغيرة - إنك لاتعلمين عما تتكلمين ، أظن أن جدتي قد أخبرتك
ببعض الأشياء فحضرت لتقدمي لي إحسانك»
«أرجوك ! أرجوك ألا تقول لي ذلك - أرجوك ألا تجرحني هكذا - إنني لا أستطيع
تحمل هذا الكلام»
رد قائلاً :

«إن هذا كل ما أستطيعه - أن أجرحك ، عودي إلى تشيز - إلى أفري - إنه
يساوي خمسين رجلاً مثلي وأنت تعلمين ذلك جيداً. كنت تريدني في القطار، فقد
كنت ترددين اسمه وأنت نائمة»
قالت :

«لأنني اضطررت أن أجرحه. كان في منتهى الطيبة معي ولكنني رفضت عندما
طلب مني أن أتزوج».

واجهها روبرت بطوله وجذبه الشديدة :

«هل طلبك وأنت رفضته ؟ متى طلبك ؟»

«صباح يوم الجمعة - بعدما وافقت على الذهاب معك إلى لندن ..»
«رفضته ؟»

قالت ببساطة :

«كيف أقبله ؟ وأنا أريدك أنت ؟»

رفع وجهها إليه :

«أنا ؟ أيتها الطفلة المجنونة - سأفسد حياتك كما أفسد أبي حياة أمي. إنني أفضل
أن أضع المحيط بيننا على أن أحول حياتك إلى جحيم - سأفعل ذلك سأنسى كل
شيء عن «العاصفة هي ميراثي» وأسافر إلى نيويورك»
قالت وهي تضحك وتبكي في وقت واحد :

«وتتركني وحيدة أتجول مع فريق الدرجة الثانية وأنام على أسرة كلها قطع من
الفحم؟»
قال بخشونة :

«لا لن تضطري لذلك ، سأجد لك عملاً محترماً قبل أن أترك لندن»

قالت والدموع في عينيها:

«أنا لا أريده - أنا أريدك أنت فقط - لأمنحك الراحة وهذا البال - ولا يساورني
خوف من أشياحك - أنت لست فقط ابن ستيفن تشيز ولكنك أيضاً ابن
كارمليتا : ألا ترى شيئاً أبعد من تشابك يادم تشيز ؟ ألا ترى أنك تشبه
أماك في كل شيء ، في عينيك وعظامك ومزاجك المسرحي . أنا لست خائفة من
ابن كارمليتا - إنني أحبه»

كانت الدنيا قد أظلمت والغربان تنبجه إلى أوكارها في تشيز والريح تحرك
الأعشاب الطويلة. سأهاها روبرت :

«ما الذي يجعلك تحببيني وقد وجهت إليك اتهامات وجرحتك ؟ ما الذي يجعلك
طفلة صغيرة ومجنونة ورقيقة»
ردت قائلة :

«من الجائز أنه مزاجي المسرحي»

ألقي بسيكارته المنتهية وفي لحظة ضمها إلى قلبه بقوة وقال :

«إذا أخذتك فلن تهربي مني أبداً. أنا عنيد ومستبد وأشياء أخرى كثيرة لا يمكن

ذكرها. وأنا أريدك بكل جراحة في أحشائي . سيجعلك حبي سجيناً - إنني
أستطيع أن أتركك الآن . ياليجيا - لكن إذا أصبحت لي فلن أتركك أبداً - لذا
فعليك أن تقرر الآن - اختاري الآن .»

ضحكت وقالت :

«إذا كنت تحبني فأرجو أن تختار نيابة عني . إن كل ما أطلبه هو أن أنعم بأمن
سجنك.»

تعلقت بعنقه :

«أنا أحتاج لحارس يرعاني - تذكر كيف هربت من جورج داونهام .»
قال وهو يقبلها على خدها:

«لاتذكرني اسم هذا اللعين - لن يتكرر ذلك أؤكد لك ، أه ياليجيا إنني أنا
لأنني أريدك - سأفعل كل ما أستطيع لاسعادك.»
«إنك تسعدني الآن - أه يا روبرت - كم كنت أتوق أن أقول لك كل هذا
ولكن اعتقدت أنك كنت تريد جدا .»
رد روبرت :

«كانت هناك كثيرات مثلها ولم تكن أي منهن تعني شيئاً بالنسبة إلي . كنت
أتسلى بهن كلعبة يتسلى بها صبي شقي ولكنه يريد شيئاً آخر لا يعرف ماهو . ثم
أتيت أنت وكان يبدو أنك من نصيب أفري . ولذلك وكولد شقي مرة أخرى
حاولت أن أكسر اللعبة التي لم تكن لي - ليجيا.»
دفن رأسه في شعرها:

«إنني أريد أن أعلم التواضع والسباحة. إنني أريد أن أستحقك . أريد أن أشعر
أن جديتي كانت محقة عندما أرسلتك إلي.»
«لو كانت تعلم أنك ستؤذيني لما أرسلتني - إنها تعرفك أكثر مني رغم أنني أحبك
لدرجة الجنون.»

ضحك وقال :

«ومنذ متى وأنت مجنونة بي يا ساحرتي ؟»

«منذ عدت بيانكر فتألمت من أجله - ثم في ردهة توبي عندما تكلمت عن
العرس مع أفري . حاولت ألا أتألم كما لو كان أحدهم قد ضربني.»

«وأنا قلتها لأن الغيرة أكلتني من الطريقة التي وضع بها أفري ذراعه حولك
- عزفت على البيانو . وقلت لك أن تتزوجيه لأنه أفضل مني بكثير.»
ابتعد عنها قليلاً وقال :

«لدي الشجاعة في هذه اللحظة أن أتركك تذهبين.»

قالت وقد شعرت بالخوف فجأة أن يتركها:

«لا !»

والتصقت به وهي ترتعش وهمست:

«لاتطردني - لاتحكم علينا بالوحدة - أرجوك !»

كان استعطافها أكثر مما يحتمل فانهارت مقاومته تماماً واختضنها في سكون
تحت شجرة العليق التي حركت اغصانها في الهواء المنعش.
وقال روبرت أخيراً :

«إنه القدر ! لو كنت وجدت الشجاعة وتركتك لما استطاع كل منا أن ينسى الآخر
- كان وجهك المضحك سيطاردي دائماً وكنت سأموت كل ليلة وأنا أنسى
احتضانك . لأنني لست رجلاً يحب الوحدة.»

نظر إلى وجهها ثم قبلها برفق وسارا بعيداً عن الشجرة بين الأعشاب . سيعود
إلى تشيز وسيواجه روبرت حزنه ولكنه لن يواجهه بمفرده . ليس الآن .
تعلقت أصابعها بأصابعه وطار الكروان في السماء وحل المساء على
المستنقعات.